طرائف عن القضاة

بقلم

سليمان محمد ثابت
المستشار بمحكمة النقض

تقدمة

بقلم عميد الأدب الدكتور طه حسين

لست أدرى لماذا استقر فى نفوس الناس أن العدل يجب أن يكون دائماً عابساً لا يعرف وجهه الابتسام مقطباً لا تعرف أساريره الانبساط . صارماً لا يعرف اللين من الجد لا يعرف حلاوة الدعابة ولا عذوبة الفكاهة ولا رقة الحديث .

وان الذين يجرونه بين الناس يجب أن يكونوا مثله صوراً للرهبة المخيفة والهيبة التى تطيرلها النفوس فرقاً وإشفاقا . أيكون ذلك لأن العدل يمثل السلطان وماينبغى له من الإجلال والإكبار ومن التوقير والتعظيم .

ولأن رجال العدل هم ألسنته الناطقة يأمرون فيطاع أمرهم ويحكمون فتنفذ أحكامهم ويقولون بالحق فلايتركون لقائل بعدهم مقالا . أم يكون ذلك لهذه المظاهر التى تحاط بها مجالس القضاء مما يبعث المهابة ويهيىء النفوس للطاعة والاذعان . وأغرب من

ذلك أن هـذا الشعور ليس مقصوراً على العامة الذين لا يتعمقون الأمور ولا يصلون إلى دخائلها وإنما يتجاوزهم إلى الخاصة بل يتجاوز هذه الخاصة إلى القضاة أنفسهم فهم يكبرون العدل ويعظمون أمره ويحرصون أشد الحرص على أن يجعلوا أنفسهم جديرين بما ينبغي له من الإجلال والإكبار فيتحرجون ويشتدون على أنفسهم في التحرج ويأخذونها بضروب من الصرامة المرة حتى لا يكاد أحدهم يبيح لنفسه أن يأخذ الحياة كما يأخذها الناس في يسر ودعة واسماح .

فالقاضي لا يعبث ولا يعابث في لفظ أو حركة أو إشارة لا أثناء جلوسه للقضاء فحسب بل في حياته الاجتماعية كلها يكاد لا يضحك إلا حين يخلو إلى نفسه ويكاد لا يبسم إلا حين يغلبه الابتسام فله حياة مع الناس صارمة قاسية وحياة مع نفسه قل أن تخلو من الصرامة والقسوة .

كذلك نظر الناس إلى القضاة ونظر القضاة إلى أنفسهم وجرت حياتهم على هذا الجد المر حتى أصبحوا له رمزاً .

ومع ذلك فليس العدل مرا كله ولا عبوسا كله وإنما هو مزاج من الشدة والرفق ومن القسوة واللين ومن العسر واليسر . فهو سبيل الناس إلى الأمن وسبيلهم إلى الرضى وهو سبيل الناس إلى السعادة وسبيلهم إلى خفض الحياة . هو يعصم المظلوم من بأس الظالم ويحمى الضعيف من بطش القوى . ويحمل الناس على حياة سواء لا عوج فيها ولا أمت ولا امتياز فيها ولا استعلاء ولا بغي فيها ولا طغيان . هو نعمة لا نقمة ورحمة لا عذاب . فاعجب لمصدر السعادة والرضى ولين العيش يفرض على رجاله القسوة والصرامة والتزمت ومرارة الحياة .

فكرت فى هذا كله مع كثير من العجب والاعجاب حين أخذت أنظر في هذا الكتاب الذى تفضل بإظهارى عليه مؤلفه الكريم الجليل الأستاذ سليمان محمد ثابت فهو مستشار فى أكبر مجلس من مجالس القضاء وأى الناس لا يمتلىء قلبه هيبة ورهبا حين تذكر له محكمة النقض ويذكر له مستشاروها ولكنى أنظر فى الكتاب أرى عجبا من العجب أراه يروى شيئا من طرائف

القضاء وفكاهة القضاة القدماء فى عصورنا القديمة على اختلافها
ثم لا يقف عند القدماء فيكون باحثاً أديباً يتتبع النوادر المطرفة
لطائفة من قدمائنا الذين نجلهم ونحبهم ونروى أنباءهم وطرائفهم
ولكنه يتجاوز القدماء إلى المحدثين المعاصرين فيروى لنا من نوادرهم
وفكاهاتهم ما يحب ويروق فهو إذن يتتبع شؤون القضاة
ويجمع أطرافا من دعاباتهم وفكاهاتهم . وهو إذن رجل مثلنا
يستطيع أن يتخفف من جده المر لحظات يخلو فيها إلى نفسه وإلى
ما يحب ثم هو لا يؤثر نفسه بهذه اللحظات وإنما يشرك فيها
زملاءه القضاة ليتخففوا مثله من عنائهم الثقيل حين يقرأون ما يقدم
إليهم من هذه النوادر الحلوة . ومن يدرى لعل بعضهم أن يروقه
هذا المذهب فيقرأ كما قرأ ويبحث كما بحث ويضيف نادرة إلى نادرة
وطرفة إلى طرفة . ثم هو لا يؤثر زملاءه القضاة بكتابه من دون
الناس وإنما يقدمه إلينا جميعاً نشاركه فى متعته ولنأنس بعد ذلك
إلى هؤلاء القضاة فنعرف أنهم ناس مثلنا لم تخرجهم صحبة العدل
المتصلة عن أطوارهم فهم يمزحون ويجدون ويخطئون ويصيبون
ويقرأون ويستمتعون ويعيشون مع الناس كما يعيش الناس .

لهذا المستشار الجليل الأديب أصدق الشكر وأخلصه لأنه قرب إلينا من أمر القضاة بعيداً وأظهر لنا أن من بينهم من استطاع أن يجمع إلى تعمقه في الفقه تعمقاً في الأدب وإلى رصانته فى تقدير الأشياء والحكم عليها رصانة فى التعبير وبراعة فى التصوير فقد جمع كتابه ألى يسر المعنى وقرب المأخذ جزالة اللفظ وروعة الأسلوب .

وله أصدق الشكر لأنه ألقى فى روعنا أن بين قضاتنا المعاصرين من لا يمنعهم تعقد الحياة القضائية وثقل أعبائها وازدحام مشكلاتها من أن يجدوا بين حين وحين ساعة أو ساعات يفرغون فيها للفن والأدب فيمتعون ويستمتعون ويصلون ما انقطع أو كاد ينقطع من العهد بين حديث قضاتنا الرائع وقديمهم المجيد .

طه حسين

هذا هو يونيو من سنة ١٩٥١ ينتصف ، وهذه هى الأجازة تبتدىء ، فرأيت أول ما رأيت أن أطوى كتب القانون وبودى — استشفاء للنفس منها — لو أهمل شأنها حتى تضرب العناكب عليها بيوتها ، فمابى اليوم من حاجة إلى ماسطر بمتونها ، أو نمنم بحواشيها ، إذ الأجازة انعتاق مما كان وانطلاق إلى ما يكون ، وهى بعد فترة مامنها بد للخلاص مما يؤود والانصراف إلى ما يروق . فالذهن قد أصابه الكلال والملال إذ كان مداره طوال العام النبش والتفتيت فى النصوص ، ومنقلبه التأويل والتدليل دعك من حُمَيّا المداولة والمقاولة . فمن حقه الآن أن ينسرح حيثما شاء ، وكذلك العين من حقها أن تسوم من المرئيات ما تريد وتملى ما تحب ، وعلى الجملة فمن حق النفس أن تجرى حينًا رهوا على رسلها .

لم أجهد نفسى فى تخير موضوع يتفق وهذا الذى ذكرته ، بل لم أفكر فى الكتابة أصلا ، إلى أن دعتنى إليها المصادفة ،

فذات صباح كنت جالساً مع قريب طبيب ومع كل منا كتاب يقرأ فيه ، وكلما وقع نظرى عليه وجدت بسمة رقيقة سادرة تتخايل على شفتيه فأيقنت عظيم إيناسه بما يقرأ وإساغه له فسألته عن اسم كتابه فقال لى Humour in Medecine الدعابة فى الطب ، وراح يروى لى الأقصوصة التى فرغ من قراءتها على التو قال :
كان طبيب يتقاضى من كل مريض يطب له بعيادته أول مرة خمسة جنيهات وجنيهاً عن كل مرة بعد ذلك ، وقد رغب مريض ماكر فى أن يتفادى دفع خمسة جنيهات مع أنه لم يسبق أن فحصه الطبيب ، فلما أن دخل على الطبيب بادره بقوله : إن الدواء الذى سبق أن أشرت علىّ به لم ينجع فى صحتى ففطن الطبيب إلى مايرمى إليه ومع ذلك مضى يتحسس أطراف مريضه ويجس أعضاءه ثم قال له : إنى أرى صحتك تطرد فى تقدمها للشفاء ، وأنك منها على حال أحسن مما رأيتك عليه قبلا ، وما عليك إلا أن تستمر على تعاطى الدواء الذى سبق أن أشرت به عليك المرة السابقة وليس عندى اليوم ما أشير عليك به سواه

فاقتضتنى مناقلة الحديث بعد هـذا الذى سمعت من جليسى أن أروى له القصة التالية لطبيب مع برناردشو الذى أحس يوماً بتعب ألزمه الفراش ، فاستدعى الطبيب وحين حضر وجد المصعد معطلا فاضطر أن يرتقى السلم وما أن دخل على شو حتى تهافت إلى الـكرسى لاهثاً مبهوراً ، فوثب شو من فراشه وناول الطبيب قرصاً من دواء ونصحه أن يمسك عن أكل اللحم اكتفاء بالفاكهة والخضر إذ لولا ذلك كما يقول المريض للطبيب — وإن شئت فالعكس صحيح — ما استطاع شو أن ينهض من فراشه هكذا نشطاً فاهراً ومنه تعلو على سن الطبيب إن لم تكن ضعفها ولم يفت رب النكتة ، وقد سنحت له أن يدعها تفلت منه ، فطلب من الطبيب بضع شلنات أجر ما أطب له إلا أن الطبيب تبسم ضاحكا من قوله وطالبه بجنيهين لأنه إذ ادعى الأعياء والتعب إنما كان يثير شو لينهض من فراشه ويناوله شيئاً من الدواء ، وقد كان ونجحت الحيلة ، وكانت وسيلة

ناجحة فى أن زال ما عند المريض من نصب عارض ، فاعترف شو بالغلب للطبيب .

أعدانى ما سمعت من جليسى وماقرأت فى كتابه فانسرحت أتذكر ما عساه يكون قد وقع لى من طرائف أثناء عملى الطويل بالقضاء فاستجابت الذاكرة إلى سخية دفاقة شأنها فى ذلك شأن كل ذاكرة لأي شخص آخر فإنها تتفتح لقبول ما يطرقها ويكون لها منه بعد ذلك الوعى والحفاظ ، غير أنها إذا ما ترد إلى الجاف من علم أو قول تتأبى وتستعصى ، ولا عجب فالذاكرة تتخفف بما يفكهها مما يثقلها ، ولكن العهد برجال القضاء أنهم يأخذون أنفسهم بالحذر والتزمت فى صرامة ومغالاة ـ ولعل الناس من ورائهم يأخذونهم على هذا النحو ـ فما ينطقون من لفظ إلا بعد تفكير وتقدير ، ثم يرسلونه فى صوت خافت مستأنية نبراته متمهلة ، وإذا عرض لأحدهم ما يستخرج الضحك انفرجت شفتاه عن بسمة نحيلة باهتة فيها الكثير من الاحتجاز والانطواء إن لم يكن السخر والازراء ،

وتلك دورهم أدنى إلى محاريب التعبد والتهدج كل من فيها لا يفتأ يلهج بأنه على حق وأنه لا ينشد إلا الحق ولا شيء غير الحق ، فكيف يجد القصص المستطرف والحديث المستظرف سبيله عند هؤلاء السادة ، وذلك هو حالهم وتلك هى دورهم ؟ لست مطالباً أن أجد لذلك سبباً إذ بحسبي أن أروى ماحدث كما حدث دون ما تلفيق أو اصطناع ، على أنى واجد مع ذلك سبباً وربما أسباباً أو ليس من طبيعة عمل رجل القضاء فى النيابة كان أو القضاء المداخلة فى شئون الناس ، والملامسة في الخاص من أمورهم ، والكشف عن منازعهم جميعاً سواء فى المدن أو القري وسواء أكانوا من العلية أم من السوقه ، يتقصى الجريمة وأسبابها وملابساتها ويظهره المتقاضون فى المنازعات المدنية على دواعيها وما خفى من أسبابها ، لا شك أن كل ذلك يهيئ لرجل القضاء الفرصة لأن يقع على الغريب من أطوارهم ومناحى تفكيرهم مما يكون أحياناً سبباً للفكاهة والتندر ، فإذا وقع له شيء من ذلك كان ضنيناً به ليخفف به عن نفسه بعض ما يعانى

من كبت وحرمان ، وقديماً قال لنا علماء الاجتماع : إنه حيثما يكون الكبت والحرمان تشيع الافكوهة والنادرة يرسلها المغلوبون على أمرهم تفريجاً عن أنفسهم وتهويناً ، ولكن أي كبت وحرمان يلازم رجل القضاء ؟ الجواب وفي ايجاز بالغ أنه يبدأ عمله بأن يطوح به ـ على الأغلب الأعم ـ في إحدي المدن بعيداً عن مصر وهو آنئذ في ميعة الصبا تستبد به نزوات وغرائز عدة لا سبيل له إلى تلبية حتى البريء منها وهو يعيش مفرداً لا يزور ولا يزار ولا يوا كل ولا يشارب يطعم الماء بالقري رنقاً كدراً ، إلى عمل متواصل متدارك وعليه ألا يكون بعيداً عن مسمعة التليفون ، ففي أية ساعة من ليل أو نهار قد يصلصل فيتهيأ لإسماعه صوتاً أجش يخطره بحادثة جناية وأين ؟ قد تكون في الكفر ، في العزبة ، على سطح الجبل ، وعليه أن يبادر بالانتقال فوراً ليقضي الليل يقظان سهران مكدوداً مجهوداً ، ولا يزال هذا حاله حتى يرقى بعد سنين قاضياً وعندئذ تبدأ السقام متسابقة متصالحة إلى جسمه إذ يقضي عليه أن يجلس وجه النهار

إلى ما بعد الظهر لا يتحرك ولا يريم ، وقد تمتد به الجلسة أو تتقلص فتختل مواعيد وجباته ، وكل ما يجري بها مما يدعو إلى تفزز الإعصاب وتوفرها ، ثم عليه أن يخلص بالحقيقة ودون ذلك تمحيص ومراجعة الأوراق بالليل والنهار ، ثم ان عليه الرجوع إلى الكتب القانونية وهي ليست متوافرة فى مكاتب المحاكم وقلما يفكر فى تجديدها ويقرأ فيها رجل القضاء إذ يقرأ مقيداً بوقائع القضية ، إذ عليه أن يلبسها الثوب القانونى مفصلا على قدها فى حبك وإحكام ، ثم يجب ألا يغيب عنا أن عمل رجل القضاء هو وحده دون سائر الأعمال الأخري الذى لا إنابة فيه إذ على القائم به أن يدرس هو وحده أوراق القضية ويصدر فيها حكمه بلا عون من أي شخص آخر . وأخيراً الملحوظ فى أعمال الحكومة أنه كلما علت السن بالموظف قل عمله إذ يكون مقصوراً على ما يسمونه الهيمنة والاشراف ، أما فى الأعمال القضائية فأضلاع المثلث مقلوبه ، هذا هو المستشار فى نهاية المطاف يحمل إليه أول كل شهر قضايا الدور وهي إضمامات متخمة مكتظة

بالأوراق تطالعه كل أول شهر فما ينتهى منها حتى تطالعه أول الشهر التالى قضايا الدور الجديد ، فالدور يروح والدور يجىء وهو منها فى حلقة مفرغة ، والدور لغة قد يكون معناه الحلقة المفرغة إقرأ معى البيتين الآتيين :

مسألة الدور جرت   بينى وبين من أحب
لولا مشيبى ما جفا   لولا هواه لم أشب

لعل رجال وزارة العدل أن يكونوا قد اقتبسوا لفظة « الدور » من هذين البيتين . هذا بعض مايعانيه رجال القضاء ومنذ أزمان أزمان والطرائف تخالط مجلسهم ، وقد اطلعت على الكثيرمنها مبعثرآ فى كتب الأدب والتاريخ فتخيرت منها أطايبها . هذا وقد أفدت من زوراتى إلى دار الكتب الكثير فى هذا الشأن، فقد عثرت فيما عثرت عليه رسالة مخطوطة كتبها الشيخ العريش قاضى العساكر جوابآ على اسئلة سأله إياها الحاكم الفرنسى عند ما أغار الفرنسيون على مصر وقد نقلتها كلها لما فيها من طرافة إذ أجاب على سؤال عن صفات القضاة وقتئذ فقال : انهم أناس

فقراء أصحاب عيال مستحقون لهذه الخدمة الشريفة ومما يطرف حقاً أن نعلم أن من بين البلاد التى كان بها محاكم شلشلمون وسنديون والنحريه الخ ، وقد كان لمحكمة المحلة الكبرى شأن أى شأن ، والله أرجو التوفيق .

* * *

طرائف للقدامى من رجال القضاء

زوج يهجو الشعبي

دخل رجل على الشعبي فى مجلس القضاء ومعه امرأته وهى من أجمل النساء واختصما إليه ، وأدلت المرأة بحجتها وقربت بينتها ، فقال الشعبي للزوج : هل عندك مدفع ؟ فما كان منه إلا أن أنشأ يقول .

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها
فتنته بدلال ... وبخطى حاجبيها
قال للجلواز قربها وأحضر شاهديها
فقضى جوراً على الخصم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ... ساجداً بين يديها

الجلواز هو الشرطى

شاعت القصة حتى بلغت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فلما دخل عليه الشعبي نظر الخليفة إليه وتبسم وقال :

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها

ثم قال للقاضي ما فعلت بقائل هذه الأبيات ، قال قضيت يا أمير المؤمنين بأن يوجع ضرباً بما انتهك من حرمتي في مجلس القضاء وبما افترى به علي ، قال أحسنت .

لمن السنور ؟

جاء رجل يخاصم إلى شريح في سنور ، قال بينتك ، قال : ما أجد بينة في سنور ولدت عندنا ، قال شريح : فاذهبوا بها إلى أمها فأرسلوها ، فإن استقرت واستمرت ودرت فهي سنورك ، وإن هي اقشعرت وهرت فاليست بسنورك .

البكاء في مجلس القضاء

قال الشعبي كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديداً ، فقلت : أصلحك الله

ما أراها إلا مظلومة قال وما علمك ؟ قلت لبكائها قال لا تفعل فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون .

عن عمر بن عبد العزيز

قال عمر بن عبد العزيز إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه فلعله قد فقئت عيناه جميعاً .

رد شاهد

كان الحسن بن أبي الحسن لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرحه المشهود إليه فأقبل إليه رجل فقال يا أبا سعيد إن إياساً رد شهادتي ، فقام معه الحسن إليه فقال يا أبا واثلة لم رددت شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا ، فقال يا أبا سعيد إن الله عز وجل يقول : (ممن ترضون من الشهداء) وهذا ممن لا يرضى .

* * *

حكم لمحكمة النقض الدائرة المدنية القضية رقم ١١١ سنة ١٥

إذا كان عدم اطمئنان المحكمة إلى صدق الشهود هو السبب الأصلى فى عدم أخذها بشهادتهم فهى لا تكون ملزمة بابداء الأسباب لتبريره ولا معقب عليها إذ الاطمئنان إلى صدق الشاهد مرده وجدان القاضى وشعوره ولا يؤثر فى سلامة الحكم أن يكون ما أضافه من رمى شهادة الشهود بالقصور غير مطابق لواقع شهادتهم على ما هي ثابتة بالحكم الابتدائى ، إذ أن صدق الشاهد أمر وفهم ذات شهادته أمراً آخر .

كيف ولى شريح القضاء

استقضى عمر بن الخطاب القاضى شريح بن الحارث الكندى على الكوفة وعثمان وعلى من بعده فمكث فى القضاء زمناً طويلا ، توفى عن مائة وعشرين سنة ونيف ، روى فى سبب توليته القضاء ، أن عمراً أخذ فرساً من رجل على سوم فحمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا فقال الرجل إنى

أرضى بشريح العراقى فقال شريح أخذته صحيحاً سليما فأنت ضامن حتى ترده صحيحاً سليما فأعجب عمر حكمه فعينه قاضياً .

* * *

قال ابن القيم فى كتابه إعلام الموقعين قال محمد بن حرب الطبرى حدثنى يعقوب بن ابراهيم أنبأنا نعيم أن أبا سيار عن الشعبى قال لما بعث عمر شريحاً على قضاء الكوفة قال له أنظر ماتبين فى كتاب الله فلاتسأل عنه أحداً ومالم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لم يتبين لك فى السنة فاجتهد فيه رأيك .

هيبة القضاء

دخل الأشعث بن قيس على شريح القاضى فى مجلس الحكومة فقال مرحباً وأهلا بشيخنا وأجلسه معه . فبينما هو جالس عنده، إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث فقال له شريح قم فاجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك قال بل أكلمه من مجلسى فقال له لتقومن

أو لآمرن من يقيمك فقال له الأشعث لشد ما ارتفعت فقال : هل رأيت ذلك ضرك قال لا قال فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك .

قضيت باقرارك

دخل عدى بن أرطاة على شريح فقال أين أنت أصلحك الله ، قال بينك و بين الحائط قال إنى رجل من أهل الشام قال نائى الدار سحيق المزار قال قد تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وولد لى غلام قال ليهنئك الفارس قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله ، قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم الآن بيننا قال قد فعلت قال على من قضيت؟ قال عليك قال بشهادة من ؟ قال بأقرارك .

لست أحكم على غائب

قيل لشريح أيهما أطيب الجوزينق أو الوزينق ؟ ـ نوعان من الحلواء ـ قال لست أحكم على غائب .

وكان شريح يقول الشعر وتنسب إليه هذه الأبيات قالها حين ضرب امرأته لشيء نقمه منها :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زينبا

أأضربها من غير ذنب أتت به

فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا

* * *

فراسة إياس

قال ابن خلكان كان القاضى إياس وهو أبو وائلة إياس بن معاوية من أفطن القضاة عرف بصدق الفراسة وحدة الذكاء قال عنه الحريرى فى المقامة السابعة . فإذا ألمعيتى ألمعية ابن عباس وفراستى فراسة إياس وعناه أبو تمام فى قوله :

إقدام عمرو فى شجاعة عنتر فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

روى عن فراسته قبل أن يستقضى أنه بينما كان مع بعض جلسائه إذ جاء رجل فجلس على دكان مرتفع بالمربد فجعل يترصد

الطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلا نظر إلى وجهه ثم رجع إلى موضعه فقال إياس قولوا فى هذا الرجل قالوا ما نقول رجل طالب حاجة ، فقال هو معلم صبيان قد أبق له غلام أعور فقام بعض جلسائه فسأل الرجل عن حاجته فقال لى غلام أبق إحدى عينيه ذاهبة فسأله وما صنعتك قال أعلم الصبيان فسألوا إياس كيف علمت ذلك قال رأيته جاء يطلب موضعاً يجلس فيه فنظر إلى أرفع شىء يقدر عليه فجلس عليه فنظرت فى صورته فإذا قدره ليس قدر الملوك فنظرت فيمن اعتاد فى جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم إلا المعلمين ، فعلمت أنه يعلم صبيانا فسألوه كيف علمت أنه أبق له غلام قال إنى رأيته يترصد الطريق ينظر فى وجوه الناس فسألوه كيف علمت أنه أعور قال بينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلا قد ذهبت إحدى عينيه فعلمت أنه يشبهه بغلامه .

إنما يشهد الموالى والتجار

أقبل وكيع بن أبى سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة فقال مرحباً وأهلا بأبى مطرف وأجلسه معه ثم قال له

ما جاء بك ؟ قال لأشهد لفلان فقال مالك وللشهادة وإنما يشهد الموالى والتجار والسوقة قال صدقت وانصرف من عنده فقيل له خدعك إنه لا يقبل شهادتك قال لو علمت ذلك لعلوته بالقضيب .

ذكاء إياس

استودع رجل أمين إياس مالا وخرج المودع إلى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى إياساً فأخبره فقال له إياس أعلمته أنك أتيتنى ؟ قال لا قال أفنازعته عند غيرى ؟ قال لا قال فانصرف وأكتم سرك ، ثم عد إلى بعد يومين ، فمضى الرجل ودعا إياس أمينه ، وقال له قد حضر عندنا مال كثير أريد أن أسلمه إليك أفحصين منزلك ؟ قال نعم قال فأعد موضعاً للمال وقوماً يحملونه ، وعاد الرجل إلى إياس فقال انطلق إلى صاحبك فإن أعطاك المال فذاك وإن جحد فقل له أنى أخبر القاضي بالقصة .

فأتى الرجل صاحبه فقال تعطينى الوديعة أو أشكوك إلى القاضى وأخبره بالحال فدفع إليه المال فرجع الرجل وأخبر إياساً .

ثم جاء الأمين إلى إياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال لا تقربنى بعد هذا ياخائن .

استودع رجل مالا ثم طالبه به فجحده فخاصمه إلى إياس بن معاوية . وقال المدعى دفعت إليه مالا فى مكان كذا وكذا فقال فأى شىء كان فى ذلك الموضع قال شجرة قال القاضى للمدعى فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى تلك الشجرة فلعل الله يوضح لك هناك ما تتبين به حقك أو لعلك دفعت مالك عند الشجرة فنسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة فمضى وقال إياس للمطلوب منه إجلس حتى يرجع صاحبك فجلس وإياس يقضى وينظر إليه بين كل ساعة ثم قال ترى بلغ صاحبك موضع الشجرة قال لا قال ياعدو الله أنت الخائن للأمانة قال أقلنى أقالك الله فأمر بحفظه حتى جاء خصمه وقضى له على المطلوب منه بعد أن أقر .

القضاء فهم

لما ذاع أمر فراسة إياس جاءه الناس يطلبون منه أن يعلمهم القضاء فكان يقول لهم إن القضاء لا يعلم إنما القضاء فهم

ولكن قولوا علمنا العلم . ومن كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعرى — الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم واعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور عند ذلك واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا جعلت عليه القضاء والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو قرابة أو نسب فإن الله عز وجل تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات . . . . . » .

فالقضاء ذكاء وفطنة وتفهم وعلم قال ابن القيم إن الله سبحانه وتعالى يقول : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً » فخص سليمان بفهم القضية وعمهما بالعلم وقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

وغنى عن البيان أن الفراسة تعين على تجلية الحق واستخلاصه من الزيف والتمويه والباطل بما تهيئه لصاحبها من براعة الاستدلال وصائب الاستنباط .

وإن من شر ما يعيّب به القاضى الغباء خصوصاً إذا كان مطبقاً مغلقاً لا يتفتح الإدراك صحيح للوقائع وتصوير لها على حقها ثم لا ينهض معه الذهن لتطبيق النص القانونى الذى يضبطها ، على أن من كان هذا حاله لا يمكث بالقضاء إلا ريثما تتبين وزارة العدل أمره ، ثم تعمل على إخراجه منه بوسيلة أو أخرى .

ما يؤمر به القاضى

فى كتاب العقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم محمد بن طلحة الوزير المتوفى سنة ٦٥٢ هـ حديث عن الأركان التى تقوم عليها الجماعة ، وقد جاء به الركن الثانى القضاء وهو من أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً وعليه مدار مصلحة الأمة ثم تحدث عن الأمور التى يؤمر بها القاضى فقال : (ينبغى أن يكون شديداً من غير عنف ويجعل مجلسه فى وسط البلد ليستوى الجهات إليه وأن ينفرد بسجادة عن الحاضرين ويحث الخصمين على الصلح بعد ظهور الحكم له قبل فصله وبته احترازاً عن التضاغن بينهما فان أبيا بت الحكم عليهما ولا يبيع ولا يشترى بنفسه ولا يجعل له

وكيلا معروفاً فى البلد لئلا يراعيه الناس فى البيع والشراء ولا يقضى عند تغير طبعه واختلال خلقه بغضب أو حزن أو فرح أو جوع أو عطش أو حر مزعج أو برد مؤلم . . . أو عند غلبة النعاس عليه ويحرم عليه أن يرتشى . وإذا حضره خصمان فلا يخص أحدهما بإذن ولا زيادة بشر ولا نظر . . ويقدم السابق والسابق في فصل القضايا فإن كان منهم امرأة أو مسافر ورأى المصلحة فى التقديم قدمه ، ومن جرت منه إساءة أدب فى مجلسه عزره بما يراه ولا يقضى لنفسه ولا لولده وإن سفل ولا لوالده وإن علا) .

***

وقد رأى أن يذكر عشر قضايا صدرت من جماعة من المتقدمين من القضاة فيها اعتبار جامع للمتوسمين وادكار نافع وقدرأينا إيراد هذه القضايا لطرافتهاوطرافة أسلوبها وأسقطنامنها اثنتين لم نرمحلالنشرهما. وسنبدأ بذكر القضية الآتية إذ فيها أيضاشىء من الطرافة القانونية ففيها إشارة إلى التفليسة والقسمة بين الغرماء.

إن غرماءه أثبتوا إفلاسه

قال أبو الحسن عبد الواحد الحصى حضرت القاضى أبا حازم، وقد جاءه طريف المحلوى من أمير المؤمنين المعتضد بالله وقال : يقول لك أمير المؤمنين لنا على فلان مال ، وقد بلغنا أن غرماءه أثبتوا عندك إفلاسه وقد قسطت لهم ماله فاجعلنا كأحدهم وقسط لنا فقال أبو حازم : قل له أطال الله بقاءه أذاكر لما قال لى وقت أن قلدنى القضاء قد أخرجت الأمر من عنقى ، وجعلته فى عنقك ولا يجوز أن أحكم فى مال رجل إلا ببينة فرجع طريف وأخبره فقال له قل له فلان وفلان يشهدان يعنى رجلين جليلين من رجال الدولة كانا فى ذلك الوقت فقال القاضى : يشهدان عندى أسأل عنهما فإن زكيا قبلت شهادتهما وإلا أمضيت ما ثبت عندى فامتنع أولئك فزعا من ألا تقبل شهادتهما ولم يدفع المعتضد شيئاً .

أحيتني أحياك الله

قال عمر بن حبيب القاضي حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعه والخصام حتى قال قائلون منهم أبو هريرة متهم فيما يرونه وصرحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم فقلت إن الحديث صحيح وأبو هريرة صحيح النقل صدوق القول فيما يرويه فنظر إلى الرشيد نظرة مغضب وانصرفت إلى منزلي فلم ألبث أن جاء لي غلام فقال أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحنط وتكفن فدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصر بي قال ياعمر بن حبيب ما تلقاني أحد من الدفع والرد بقول بمثل ما تلقيتني وتجرأت علي فقلت يا أمير المؤمنين أن الذي قلته ووافقت عليه وجادلت عنه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به فإذا كان أصحابه ورواة حديثه

كذابين والشريعة ماطلة والفرائض مردودة فالله الله يا أمير المؤمنين قال أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله وأمر له بعشرة آلاف درهم .

أى رجليك أطول

رد رجل على رجل جارية اشتراها منه فخاصمه إلى إياس فقال له بم تردها قال بالحمق فقال لها إياس أى رجليك أطول فقالت هذه فقال اتذكرين ليلة ولدت قالت نعم فقال إياس رد ، رد ! .

كيف ولى إياس القضاء

كتب عمر بن عبد العزيز إلى نائبه بالعراق وهو عدى ابن أرطاة أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فول قضاة البصرة أحدهما فجمع بينهما ، فقال له إياس أيها الأمير سل عنى وعن القاسم فقيهى المصر الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما فعلم القاسم أنه إن سألهما

أشارا به فقال لا تسأل عني ولا عنه فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي ، فقال له إياس أنت جئت برجل وقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال عدى بن أرطاة أما إذ فهمتها فأنت لها واستقضاه .

إياس الغـــلام

قدم إياس بن معاويه الشام وهو غلام فقدم خصما له إلى قاض لعبد الملك بن مروان ، وكان خصمه شيخاً كبيراً ، فقال له القاضي : أتقدّم شيخاً كبيراً ؟ فقال له إياس : الحق أكبر منه ، قال : اسكت قال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال : ما أظنك تقول حقاً حتى تقوم . قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقام القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره الخبر ، فقال : اقض حاجته وأخرجه من الشام لئلا يفسد على الناس .

الهـادى لا يحلف

خوصم أمير المؤمنين الهـادى إلى القاضى أبى يوسف فى بستان وكان الحكم فى الظاهر للهادى وفى الباطن خلاف ذلك ، فقال الهـادى لأبى يوسف ما فعلت فى الأمر الذى تتنازع إليك فيه ؟ فقال خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على الحق ، فقال له الهـادى وترى ذلك؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه فقال أردد البستان عليه ، وإنما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادى لا يحلف .

المـأمون أمام القاضى

دخل رجل على المـأمون وهو من أعاظم خلفـاء بنى العباس وعلمائهم وحكمائهم وفى يده رقعة فيها مظلمة من أمير المؤمنين فقال المأمون أمظلمة منى ؟ فقال الرجل أفأخاطب يا أمير المؤمنين سواك قال وماهى ظلامتك ؟ قال إن سعيداً وكيلك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال فاذا اشترى سعيد منك الجواهر تشـكو

الظلامة منى قال نعم إذا كانت الوكالة صحت منك قال لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر وحمل إليك المال أو اشتراه لنفسه وعليه فلا يلزمنى لك حق ولا أعرف لك ظلامة فقال له إن فى وصية عمر ابن الخطاب لقضائكم: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، وأنا أدعوك إلى القاضى الذى نصبته لرعيتك ، قال نعم ، ولما كانا فى مجلس القضاء أمام القاضى يحي بن أكثم دعى بالرجل المتظلم فقال له يحي ما تقول ؟ قال أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين فنادى المنادى فإذا المأمون قد جاء ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحي وهو جالس فقال القاضى للخليفة إجلس فطرح المصلى ليقعد عليها فقال له القاضى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس فطرح لخصمه مصلى أخرى فنظر فى دعوى الرجل الذى طلب الحلف فطالب القاضى الخليفة باليمين فحلف .

قاض يرد طلب الخليفة

قال عبد الرحيم ابن القاضى اسماعيل بن إسحق كان فى حجر أبى يتيم فبلغ وله أم وأختها فى دار الخليفة المعتضد بالله فقالت

أم اليتيم لأختها كلمى أمير المؤمنين حتى يرفع اسماعيل القاضى الحجر عن ولدى فكلمته فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وقال قل لاسماعيل القاضى يفك الحجر عن فلان فقال القاضى حتى أسأل عنه وقام فسأل عنه فلم يخبر عنه برشد فتركه ، ومضت على ذلك أيام فرجعت والدة الصبى إلى أختها وسألتها أن تعاود أمير المؤمنين وكان المعتضد لا يعاود لخشونته فعاودته فقال ألست قد أمرت ؟ فقالت لم يرفع عنه بعد ، فدعا وزيره عبيد الله ثانياً وقال أمرتك أن تأمر اسماعيل القاضى أن يرفع الحجر عن فلان فقال قد كنت قلت له ذلك فقال حتى أسأل عنه فقال قل له يرفع الحجر عنه فدعاه الوزير ثانياً وقال له أمير المؤمنين يأمرك أن ترفع الحجر عن فلان فأطرق القاضى ساعة ثم استدعى دواة وورقة وكتب شيئاً وختمه فاستعظم الوزير أن يختم عنه كتاباً ولم يقل له شيئاً لمحل اسماعيل من الورع والعلم ، ثم رفع ذلك للوزير وقال له توصل هـذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابه فأخذه الوزير ودخل على المعتضد وقال زعم أن هذا جواب

أمير المؤمنين ففتح المعتضد الكتاب وقرأه وألقاه وقال لا تعاوده في هذا فأخذ عبد الله الوزير الكتاب وإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

لا يثبت الحق إلا بالبينة

قال العتبي إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبدالملك ، إذ أقبل ابراهيم بن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه ، فقال الحرسي إن أمير المؤمنين جرني في خصومة بينه وبين ابراهيم

فقال القاضي شاهداك على الجراية ـ الوكالة ـ قال أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل ؟ قال بلى ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة فقام الحرسي إلى هشام فأخبره فلم نلبث أن قعقعت الأبواب وخرج الحرسي فقال هذا أمير المؤمنين وخرج هشام فلما نظر إليه القاضي أمر أن تبسط له مصلى وأشار إليه فقعد عليها وابراهيم بين يديه وكنا حيث نسمع بعض

كلامهم ويخفى عنا بعضـه فتكلما وأحضر البينة فقضى القـاضى على أمير المؤمنين هشام .

فكلمه ابراهيم بكلمة فيها بعض الخرق إذ قال الحمد لله الذى أبان للناس ظلمك فقال له هشام لقد هممت أن أضرب عنقك ضربة يتنثر منها لحمك عن عظمك ، فرد ابراهيم أما والله لئن فعلت لفعلته بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق .

فقال هشـام استرها على قال لاستر الله ذنبي إن سترتها قال فإنى معطيك عليها مائة ألف قال ابراهيم فسترتها عليه حياته ثمناً لما أخذت منه وأذعتها بعد مماته تزييناً له .

شروع فى رشوة

نقل أن عاقبة بن يزيد القاضى كان يلى القضاء ببغداد للمهدى فجاء فى بعض الأيام وقت الظهر للمهدى وهو خال فاستأذن عليه فلما دخل استأذنه فيمن يسلم إليه القمطر الذي فيه القضايا واستعفاه من القضاء وطلب منه أن يقيله من ولايته ، فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه فقال له فى ذلك إنه إن عارضك أحد

تنـكر عليه ، فقال القاضي لم يـكن شيء من ذلك ، قال فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال يا أمير المؤمنين تقـدم لى خصمان منذ شهر فى قضية مشـكلة وكل يدعي بينة وشهوداً ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتلبث فرددت الخصـوم رجاء أن يصطلحوا ، وأن يظهر الفصل بينهما فسمع أحـدهما أنى أحب الرطب فعمد — فى وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب — فجمع رطباً لا يتهيأ فى وقتنا هـذا جمع مثله لأمير المؤمنين وما رأيت أحسن منه ورشا بوابى بدراهم على أن يدخل الطبق على ولا يبالى أن يرد عليه . فلما ادخله على أنـكرت ذلك وطردت بوابى وأمرت برد الطبق فرد عليه .

فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى فما تساويا فى عينى ولا قلبى ، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حالى لو قبلت ولا آمن أن تقع على حيلة فى دينى وقد فسـد الناس فأقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله وأعفنى عفا الله عنك

أنا بالله ثم بالقاضي

أتت امرأة يوماً شريك بن عبد الله قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم فقالت أنا بالله ثم بالقاضي : قال من ظلمك ؟ قالت الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبي وقاسمت أخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً وجعلت فيه رجلا فارسياً يحفظ النخل ويقوم به فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع أخوتي وساومني ورغبني فلم أبعه فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً فقال القاضي يا غلام أحضر طينة فأحضر نختمها ودخل على موسى فقال قد أعدي القاضي عليك وهذا ختمه ، فقال أدع لي صاحب الشرطة فدعا به فقال امض إلى شريك وقل يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك امرأة إدعت دعوى لم تصح أعديتها على قال صاحب الشرطة إن رأي أمير المؤمنين أن يعفيني من ذلك فقال امض ويلك فخرج . وقال لغلمانه اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضي بساطا وفراشاً

وما تدعو الحاجة إليه ثم مضى إلى شريك فلما وقف بين يديه أدى الرسالة فقال لغلام المجلس خذ بيده فضمه فى الحبس فقال صاحب الشرطة والله قد علمت أنك تحبسنى فقدمت ما احتاج إليه فى الحبس .

وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه وقال له رسول أدى رسالة أي شيء عليه ؟ فقال شريك اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس فحبس .

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحق بن الصباح الأشعثى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك وقال لهم أبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بى وأنى لست كالعامة ، فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر فأبلغوه الرسالة فلما انقضى كلامهم قال لهم مالى أراكم جئتمونى فى جمع من الناس فكلمتمونى ؟ من هنا من فتيان الحي ؟ فأجابه جماعة من الفتيان قال ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل ليذهب به إلى الحبس

ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس قالوا له أجاد أنت ؟ قال حتى لا تعودوا لرسالة ظالم ، فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم فلما كان من الغد وجاء شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله وقال لغلامه الحق بثقلى إلى بغداد والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ولكن أكرهونا عليه ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب فى موكبه فلحقه وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله تثبت انظر أخوانى أتحبسهم دع أعوانى قال نعم لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجزلهم المشى فيه ولست ببارح أو يردوا جميعاً وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدنى .

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس فقال لأعوانه خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس فى مجلس القضاء فجاءت المرأة المتظلمة فقال :

هذا خصمك قد حضر فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه : قبل كل أمر أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس فقال شريك : أما الآن فنعم أخرجوهم من الحبس ، فقال ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة قال صدقت قال ترد ما أخذت منها وتبنى حائطها سريعاً كما كان ، قال افعل ذلك قال لها ابقى لك عليه دعوى ؟ قالت لا وبارك الله عليك وجزاك خيراً قال قومى فقامت من مجلسه .

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه وقال السلام عليك أيها الأمير ذاك الفعل حق الشرع وهذا القول الآن حق الأدب فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه .

توقير مجلس القضاء

العتبى قال تنازع ابراهيم بن المهدى هو وبختيشوع الطبيب — اسم سريانى مركب من كلمتين بخت ومعناها عبد ويشوع هو يسوع — بين يدى أحمد بن أبى دؤاد القاضى فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد فزري عليه ابن المهدى وأغلظ له بين يدى

أحمد بن أبى دؤاد فأحفظه ذلك فقال يا إبراهيم إذا نازعت أحداً
فى مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت
إليه بيد وليكن قصدك أمماً وكلامك معتدلا وريحك ساكنة
ووف مجالس الحكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجه
إلى الواجب فإن ذلك أشبه بك وأشكل لمذهبك فى محتدك وعظيم
خطرك ولا تعجل فرب عجلة تهب ريثا والله يعصمك من الزلل
وخطل القول والعمل ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك
من قبل إن ربك حكيم عليم ، قال ابراهيم أصلحك الله أمرت
بسداد وحضضت على رشاد واست عائداً إلى ما يثلم مروءتى عندك
ويسقطنى من عينك ويخرجنى عن مقدار الواجب إلى الاعتذار
فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه معترف
بجرمه فإن الغضب لا يزال يستفزنى بمواده فيردنى مثلك بحلمه
وتلك عادة الله عندك وعندنا منك وحسبنا الله ونعم الوكيل وقد
وهبت حقى فى هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يكون وافياً
ولن يتلف مال أفاد موعظة وبالله التوفيق .

قضى للحمالين على أمير المؤمنين

قال نمير المدني قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ومحمد ابن عمران الطلحي يتولى القضاء بها وأنا كاتبه فحضر جماعة من الحمالين واستمدوه على أمير المؤمنين المنصور فى شيء ذكروه فأمرنى أن أكتب إلى المنصور بالحضور معهم أو انصرافهم فقلت له أعفنى من ذلك فهو يعرف خطى فقال اكتب فكتبت وختمت فقال والله مايمضى به غيرك فمضيت به إلى الربيع حاجبه وجعلت اعتذر إليه فقال لا بأس عليك ودخل بالكتاب على المنصور .

ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والاشراف وغيرهم إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم أنى دعيت إلى مجلس الحكم فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ولا تبدؤونى بالسلام .

ثم خرج وبين يديه المسيب والربيع وأنا خلفه وهو فى إزار ورداء فسلم على الناس فما قام إليه أحد ثم مضى حتى بدأ بقبر النبى صلى الله عليه وسلم فسلم عليه ثم التفت فلما رآه ابن عمران القاضى

أطلق رداءه على عاتقه ثم اجتبى به ودعا بالخصوم والحمالين ثم دعا بالمنصور فادعى عليه القوم وقضى لهم عليه ثم انصرف .

فلما دخل المنصور الدار قال للربيع اذهب فإذا قام القاضى من مجلسه فادعه فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه فرد عليه السلام وقال له جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسبك وعن خليفتنا أحسن الجزاء ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك فاقبضها فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة .

أبو دلامة يشهد

شهد أبو دلامة لجارة له عند ابن أبى يعلى القاضى على إتان نازعها فيها رجل فلما فرغ من الشهادة قال لابن أبى يعلى اسمع ماقلت قبل أن آتيك ثم اقض بما شئت قال هات فأنشده :

إن الناس تغطونى تغطيت عنهمُ ... وإن بحثوا عنى ففيهم مباحث
وإن حفروا بئرى حفرت بئارهم ... فسوف ترى ما تثير النبائث

فأقبل القاضى على المرأة وقال أتبيعينى الأتان ؟ قالت نعم قال بكم ؟ قالت بمائة درهم قال ادفعوها إليها ففعلوا .

وأقبل على الرجل فقال قد وهبتها لك وقال لأبى دلامة قد أمضيت شهادتك وابتمت ممن شهدت له ووهبت ملكى لمن رضيت ؟ قال نعم وانصرف .

بين قاض وامرأته

ولما ولي القضاء على مصر ثوبة بن نمر الحضرمى دعا امرأته عقبرة الأشجعية وقال لها :

أى صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب وأكرمه .

قال فاسمعى لا تعرضى لى فى شىء من القضاء لا تذكرينى بخصم ولا تسأليني عن حكومة فان فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق فاما أن تقيمى مكرمة وأما أن تذهبى ذميمة » .

من يحجر على القاضى

كان ثوبة بن نمر الحضرمى متلافا لماله لا يملك شيئاً إلا وصل به إخوانه فلما ولى قضاء مصر فى زمن هشام بن عبدالملك رأى أن يحجر على المبذر فرفع إليه غلام من حمير كان لا يبقى على شىء من ماله

فقال له توبة أرى أن أحجر عليك،فقال الغلام ومن يحجر عليك أيها القاضى ؟ والله ما نبلغ من أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد .

لست قابلا شهادتك

اختصم رجل وامرأته عند توبة فطلقها فقال توبة متعها فقال لا أفعل قال فسكت عنه لأنه لم يره لازماً له فأتاه الرجل الذى طلق امرأته فى شهادة قال له توبة لست قابلا شهادتك قال ولم ؟ قال إنك أبيت أن تكون من المحسنين وأبيت أن تكون من المتقين ولم يقبل له شهادة .

أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس

أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى

الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدى عليها حفظاً لها من البوار والتوارث فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديواناً عظيما .

كيف ولى ابن خذامر القضاء

كان وفد من أهالى مصر وفدوا على سليمان بن عبد الملك وفيهم ابن خذامر الصنعاني مولى سبأ فسألهم سليمان عن أهل المغرب فأخبروه وأبى بن خذامر أن يتكلم فلما خرجوا قال له عمر بن عبد العزيز ما منعك من الكلام يا أبا مسعود قال خفت الله أن أكذب فعرفها له عمر فلما ولى كتب إلى أيوب بن شرحبيل بولاية بن خذامر القضاء فوليه من سنة مائة إلى سنة خمس ومائه .

شبيه بذلك سبب تولية عمر شريحاً القضاء على ماسبق ذكره

أبو حنيفة يرفض القضاء

روى ابن عابدين فى حاشيته على الدر أن أبا حنيفة دعى إلى القضاء ثلاث مرات فأبى حتى ضرب فى كل مرة ثلاثين سوطا فلما كان فى المرة الثالثة قال حتى أستشير أصحابى ، فاستشار أبا يوسف

فقال له لو تقلدت لنفعت الناس فنظر إليه أبو حنيفة نظر المغضب قال أرأيت لو أمرت أن أعبر البحر سباحة أكنت أقدر عليه فكأني بك قاضياً .

قال الأستاذ محمد الخضرى فى كتابه تاريخ التشريع الإسلامى: أدرك أبو حنيفة تحول الأمر من بنى أمية إلى بنى العباس وكانت الكوفة مركز الحركة الكبرى فى هذا الانتقال وبها تمت بيعة أبى العباس السفاح ولم نسمع له فى تلك الحركة ذكراً إلا أنه يقال أن يزيد بن هبيرة والى العراق من قبل مروان بن محمد عرض عليه ولاية القضاء فأبى فضربه من أجل ذلك وأنه إذا سهل علينا أن نفهم إباء شخص أن يتولى القضاء فلا نكاد نفهم أن يضرب على ذلك إذ أن الضرب بالسوط وهو نهاية الاحتقار لا يفعله عاقل ليحمل إنساناً على تولى أشرف منصب بعد الامارة وهو منصب القضاء إذا لم يكن ثم إلا الاباء فأنا لا نظن أنه يحدث في قلب الأمير من الضغينة ما يحمله على إجراء تلك العقوبة لا سيما أن الفقهاء كانوا متوافرين فلا يعز على ابن هبيرة أن يختار من بينهم من يؤدى هذه المهمة ،

إني أظن ان هذا العرض كان الغرض منه محنة المعروض عليه حتى يعرف مقدار ولائه للحكومة فإن العلماء على ما يظهر كانوا يمتنعون عن أن يتولوا عملا فى حكومة لا يحبونها لئلا يكون ذلك تأييداً لها وقد حصل أنه قام بالكوفة فى هذا العهد ثائران أولهما زيد بن على بن الحسين الذى خرج سنة ١٢٢ فى خلافة هشام بن عبد الملك وامارة يوسف بن عمر الثقفى على العراق فقتل والثانى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فى عهد اضطراب الجبل سنة ١٢٧ وقد كانت بدت من أبى حنيفة كلمة تدل على امتداح زيد كما نقل ذلك عمن كتبوا سيرته ويمكن أن يكون عاد ذلك منه فى أيام عبد الله بن معاوية فاراد ابن هبيرة ان يختبر ولاءه لبنى أمية فعرض عليه القضاء فامتنع فضربه لأنه شعر بانحرافه عن بنى أمية لا لأنه أبي أن يتولى القضاء.

ويرى الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن أبى حنيفة أنه عندما رفض القضاء ما كان يرفضه لأنه لا يوالى المنصور فقط، بل يرفضه لأنه يراه عملا خطيراً ربما لا تقوى نفسه على احتماله

ولا يقوى ضميره على تلقى تبعاته ولا تقوى إرادته على ضبط نفسه عن أهوائها فى الأمور التى تكتنف منصبه ولا يقوى على تنفيذ الحق فى كل الناس، فهو يرى فى القضاء محنة دونها كل محنة، ولقد كنا نعتقد ذلك جازمين أنه يرفض لذلك فقط وأنه لا يطوى فى ثنايا الرفض أى نزعة سياسية لولا أنه يرفض الأفتاء أيضاً والافتاء إنما يكون فيما يشكل على القضاء وكان القوى الجرىء اللهم إلا أن يقال إن إفتاءه عند ما تعرض عليه مسائل القضاء حكم وهو لا يريد الحكم بأي شكل من الأشكال.

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامله فى مصر أن يولى القضاء كعب بن يسار وكان ممن قضوا فى الجاهلية فأبى كعب فولى عمرو عثمان بن قيس بن أبى العاص فاتخذها عمال مصر سنة فكانوا يولون القضاة من قبلهم.

قاض يعمل الارسان

كذلك امتنع عن أن يلى القضاء حياة بن شريح فقد دعى إلى قضاء مصر هو وأبو خزيمة وعبد الله بن عباس اليبساني، عرض

الأمير أولا على حياة بن شريح فامتنع فدعى له بالسيف فلما رأى ذلك أخرج مفتاحاً كان معه وقال هذا مفتاح بيتى ولقد اشتقت إلى لقاء ربى ، فلما رأى الأمير عزيمته تركه ثم دعا بأبى خزيمة فعرض عليه القضاء أيضاً فامتنع فدعا له بالسيف فضعفت نفسه ولم يحتمل فأجاب إلى القبول وولى القضاء بمصر ، وكان أبو خزيمة يعمل الأرسان وكان يعمل كل يوم رسنين واحدا ينفقه على نفسه وأهله وآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الاسكندرية فلما ولى القضاء كتب إليه أهل الإسكندرية إنا لله وإنا إليه راجعون إن كانت الدنيا مالت بك أن تقطع ما كان الله يجريه على يديك فى سبيل الله فقال معاذ الله فكان يعملها ويبعث بها إليهم ، قال المفضل وكان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل وقال إنما أنا عامل للمسلمين فإذا اشتغلت بشىء غير عملهم فلا يحل لى أخذ مالهم ، قال المفضل دخلنا عليه فقلنا كيف نجدك يا أبا خزيمة قال أصبحت وأمسيت بين رجلين إما حامد وإما ذام ولعله يدخل على فى اليوم الواحد خلق كثير

من الناس أريد أن أعد لكل واحد منهم جواباً مخافة أن يزيغنى على ذلك . ومن طريف ما وقع له فى قضائه أنه لما ولى القضاء مر به رجل من الإسكندرية وهو فى مجلس الحكم فقال لأختبرن أبا خزيمة فوقف عليه وقال يا أبى خزيمة احتجت إلى رسن لفرس فقام أبو خزيمة إلى منزله فأخرج رسناً فباعه ثم جلس من غير أن يستفزه غضب .

ولى القضاء ساعة

وجاء بالأغانى أن الحسن بن زيد إسحاق دعا طلحة بن عمر ابن عبد الله أيام كان بالمدينة إلى ولاية القضاء فأبى عليه فحبسه وجاء بنو طلحة فانسجنوا معه وبلغ ذلك الحسن بن يزيد فأرسل إليه فأتى به فقال إنك تلاحجت على ، وقد حلفت ألا أرسلك حتى تعمل لى فأرسل الحسن معه جنداً حتى جلس فى المسجد مجلس القضاء والجند على رأسه فجاء داود بن مسلم فوقف عليه فقال :

طلبوا الفقه والمروءة والحلم وفيك اجتمعن يا إسحاق

فقال : ادفعوه ودعوه فنحى عنه فجلس ساعة ثم قام من مجلسه فأعفاه الحسن بن زيد من القضاء .

* * *

قاض لا يقرأ ولا يكتب

لما قدم مروان بن الحكم مصر سأل عن القاضي فقيل هو عامر بن سعيد فدعاه فقال أجمعت القرآن قال لا قال فتفرض الفرائض قال لا قال فتكتب بيدك قال لا قال فبم تقضي قال أقضي بما علمت وأسأل عما جهلت قال أنت القاضي .

ثم ان مروان سأله بعد ذلك عن فريضة فأصاب وسأله عن مسألة في الطلاق فأصاب وسأله عن شيء من القرآن فأصاب فقال مروان عباد الله ألا تعجبون من عابس زعم أنه لا يحسن الفرائض والقرآن ولكن المؤمن يهضم نفسه .

قال عبد الله سألت حسن بن عبد الله كيف جعل عابس قاضياً وهو أعرابى مدرى قال إنه جالس عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو حتى استفرغ علمهما ثم أقره عبد العزيز بن مروان على القضاء والشرط ثم استخلفه حين خرج إلى الشام.

وجاء عنه فى تاريخ القضاء فى الإسلام للقاضى الشيخ محمود محمد عرنوس من أظرف ما يروى عن قضاة مصر أن عابس بن ربيعة المراوى قاضى مصر فى زمن معاوية بن أبى سفيان كان أمياً وقد ولى القضاء لأمر سياسى على ما يظهر من الحادثة الآتية.

كتب معاوية إلى مسلمة يأمره بأخذ البيعة ليزيد فأتى مسلمة الكتاب وهو بالإسكندرية فكتب إلى النائب بذلك فى مصر فبايع الناس إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فأعاد عليه مسلمة الكتاب فلم يقبل فقال مسلمة من لعبد الله بن عمرو فقال عابس أنا فقدم الفسطاط فبعث إلى عبد الله بن عمرو فلم يأته فدعا بالنار والحطب ليحرق عليه قصره فأتى فبايع وبعد ذلك تولى عابس القضاء واستمر فى قضاء مصر حتى دخلها مروان بن الحكم فى سنة خمس وستين، وقد توفى سنة ثمان وستين.

* * *

شُرَيْح يتزوج

قال الشَّعبي : قال لى شريح : ياشعبى عليكم بنساء بنى تميم فانهن النساء قلت وكيف ذاك ؟ قال انصرفت من جنازة ذات يوم مُظهرا فررت بدور بنى تميم فاذا إمرأة جالسة فى سقيفة على وسادة وتجاهها جارية كأحسن من رأيت من الجواري فاستسقيت ـ ومابى من عطش ـ فقالت أىُّ شراب أعجب إليك؟ النبيذ أم اللبن أم الماء ؟ قلت : أي ذلك تيسر عليكم قالت اسقوا الرجل لبنا فانى أخاله غريباً فلما شربت نظرت إلى الجاريه فأعجبتنى فقلت من هذه؟ قالت ابنتى فقلت وممن قالت زينب بنت جدير قلت أفارغة أم مشغولة ؟ قالت بل فارغة قلت أتزوجينيها قالت نعم إن كنت كفئاً ولها عم فاقصده .

وانصرفت إلى منزلى لأقيل فيه فامتنعت مني القائلة فأرسلت إلى إخوانى القراء ووافيت معهم صلاة العصر فاذا عمها جالس

فقال أبا أمية حاجتك قلت إليك قال وما هى ؟ قلت ذكرت لى بنت أخيك زينب فقال ما بها عنك رغبة ثم زوجنيها وما بلغت منزلى حتى ندمت وقلت تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها ثم هممت بطلاقها ولكن قلت أجمعها إلىّ فان رأيت ما أحب وإلا طلقتها .

ثم مكثت أياما حتى أقبل نساؤها يهادينها ولما أدخلت قلت يا هذه إن من السنة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يصلى ركعتين وتصلى ركعتين ويسألا الله خير ليلتهما ويتعوذا به من شرها فتوضأت فاذا هى تتوضأ بوضوئى وصليت فاذا هى تصلى بصلاتى ولما قضينا الصلاة قالت لى إنى امرأة غريبة وأنت رجل غريب لا علم لى بأخلاقك فبين ما تحب فآتيه وما تكره فانزجر عنه فقلت قدمت خير مقدم قدمت على أهل دار زوجك سيد رجالهم وأنت سيدة نسائهم أحب كذا وأكره كذا وما رأيت من حسنة فاثبتيها وما رأيت من سيئة فاستريها قالت أخبرنى عن أختانك ـ كل من كان قريباً للزوجة أو الصهر ـ أتحب أن

يزوروك ؟ فقلت أنى رجل قاض وما أحب أن تملوني قالت فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ومن تكرهه أكرهه قلت بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء .

فأقمت عندها ثلاثاً ثم خرجت إلى مجلس القضاء فكنت لا أري يوماً إلا وهو أفضل من الذي قبله حتى إذا كان رأس الحلول دخلت منزلى امرأة عجوز تأمر وتنهى قلت يازينب من هذه قالت أمى فلانة قلت حياك الله بالسلام قالت أبا أمية كيف أنت وحالك قلت بخير أحمد الله قالت أبا أمية كيف زوجك قلت كخير امرأة قالت إن المرأة لاترى فى حال أسوأ خلقاً منها فى حالتين إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلاماً فإن رأيت منها ريب فالسوط فإن الرجال ماحازت ـ والله ـ بيوتها شراً من المتدلله .

قلت أشهد أنها ابنتك فقد كفيتنى الرياضة وأحسنت الأدب قالت أتحب أن يزورك أختانك قلت متى شاؤوا .

قال شريح فكانت كل حول تأتينا وتوصي تلك الوصية ثم تنصرف ومكثت عشرين عاماً فما غضبت عليها الإمرة كنت لها فيها ظالماً .

قاض يستفتي الخليفة

كتب عياض بن عبيد الله الأزدى قاضى مصر من قبل عمر ابن عبد العزيز يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب له أن يجعلها للشريك وحده وقال إذا وضعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة .

قاض وجارية

قالت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب أرسلتنى مولاتى فاطمة في حاجة فمررت برحبة القضاء فإذا مصنعة العبسى خليفة جعفر بن سليمان يقضى بين الناس فأرسل إلى فدعانى ، وقد كنت رطلت شعرى — لينته بالدهن — وربطت فى أطرافه من ألوان العهن فقال ماهذا ؟ فقلت شىء أتملح به فقال : ياحرس قنعها بالسوط قالت : فتناولت السوط بيدى وقلت قاتلك الله

ما أبين الفرق بينك وبين سعد بن ابراهيم سعد يجلد الناس في السماجة وأنت تجلدهم في الملاحة قال الشاعر :

جلد العادل سعد ابن سليم في السماجة
فقضى الله لسعد من أمير كل حاجة

قالت : فضحك وقال : خل عنها . قالت : فكان يسوم لى وكانت مولاتى تقول : لا أبيعها إلا أن تهوى ذلك وأقول لا أجد بأهلى بدلا .

من غلب إياس

روى عن إياس إنه قال ما غلبنى أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أنى كنت فى مجلس القضاء بالبصرة فدخل على رجل شهد عندى أن البستان الفلانى وذكر حدوده هو ملك فلان فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس ؟ فقلت : منذ كذا فقال : كم عدد خشب سقفه ؟ فقلت له : الحق معك وأجزت شهادته .

شاهد آخر غلب القاضي ابن شبرمه

أتى رجل ابن شبرمه بقوم يشهدون له على قراح فيه نخل فشهدوا وكانوا عدولا فسألهم كم فى القراح من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم فرد شهادتهم فقال له رجل منهم : أنت كم تقضى فى هذا المسجد فقال منذ ثلاثين سنة فقالوا فأعلمنا كم فيه من اسطوانة ؟ فأجازهم .

* * *

وكيل نيابة يسأل المستشارين

أذكرنى ماجاء بالواقعتين السابقتين ماحدث من أحد وكلاء النائب العام وقد وكل إليه المرافعة فى إحدى الجنايات فقد لاحظ أن المستشارين والمحامين عن المتهم يسألون شهود الأثبات فى القضية عما كان يلبسه المتهم عند ما أطلق العيار النارى على القتيل ، وقد ناقض الشهود بعضهم بعضاً تناقضاً بيناً فيما شهدوا به عن هذه الواقعة وقد خشي وكيل النيابة أن يكون ذلك سبباً فى أن لا تطمئن المحكمة إلى شهادة هؤلاء الشهود ، فسكت حتى إذا جاء دوره

فى المرافعة ، ورغب فى أن يرد على ما أنف ذكره من تناقض بين الشهود فوضع ورقة كانت معه على رباط رقبته نخبأه ، ثم توجه إلى المستشارين متسائلاها أنا أتحدث إليكم منذ الصباح ، فهل منكم من يذكر لون رباط رقبتى ؟

ولقد كانت تلك من وكيل النيابة دفعة بارعة دعم بها الإتهام ، فلم يوهنه ما كان من تناقض الشهود إذ توضح أنه ليس ذا بال .

إياس يفسر حلماً بتاريخ وفاته

قال إياس فى العام الذى توفى فيه : رأيت فى المنام كأنى وأبى على فرسين فجريا معاً ، فلم أسبقه ولم يسبقنى وعاش أبى ستاً وسبعين سنة وأنا فيها ، فلما كان آخر لياليه قال : أتدرون أى ليلة هذه ؟ ليلة أستكمل فيها عمر أبى ونام فأصبح ميتاً .

قاض يحبذ الميل

كان عبدالله بن أبى بكرة قاضياً وكان يميل فى الحكم إلى إخوانه فقيل له فى ذلك فقال : وما خير رجل لا يقطع من دينه لإخوانه .

قاض يحذر من الميل

قال ابن سيرين كنا عند أبي عبيدة بن أبي خذيمة فى قبة له وبين يديه كانون له فيه نار، فجاءه رجل فجلس معه على فراشه فساره بشيء لا ندرى ماهو فقال له أبو عبيدة: ضع لى إصبعك فى هذه النار، فقال له الرجل: سبحان الله تأمرنى أن أضع لك إصبعى فى هذه النار فقال له أبو عبيدة: أتبخل على بإصبع من أصابعك فى نار الدنيا، وتسألنى أن أضع لك جسدى كله فى نار جهنم؟ قال: فظننا أنه دعاه إلى القضاء.

قاض ينطق بالحكم عند المعاينة

قال قائل كان بيني وبين جار لى مشاجرة فى حائط فقالت لى أمى: امض إلى القاضى المفضل بن فضالة تسأله أن يأتى ينظر إلى هذا الحائط، فمضيت إليه وأخبرته، فقال لى: أجلس لى بعد العصر حتى أوافيك، فأتى فدخل إلى دارنا فنظر إلى الحائط ثم دخل إلى دار جارنا فنظر إليه فقال الحائط لجاركم.

يدافع عن قضائه بعد عزله

لقى رجل المفضل بعد أن عزل فقال : حسبك الله قضيت على بالباطل وفعلت وفعلت ، فقال المفضل : ولكن الذى قضينا له يطيب الثناء .

مجلس للقاضى صيفاً وآخر شتاء

ولى القضاء على مصر من قبل المأمون هرون بن عبد الله سنة ٢١٧ من الهجرة ، فجعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد الجامع واستدبر القبلة وأسند ظهره بجدار المسجد ومنع المصلين أن يقربوا منه وباعد كتابه عنه وباعد الخصوم ، وكان أول من فعل ذلك واتخذ مجلساً للصيف فى صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربى .

إمتحان من يطلب للقضاء

كان يحيى بن اكثم يمتحن من يريدهم للقضاء فقال لرجل : ما تقول فى رجلين زوج كل واحد منهما الآخر أمه فولد لكل

واحد من امرأته ولد ما قرابة ما بين الولدين ؟ فلم يعرفها فقال له يحيى : كل واحد من الولدين عم لآخر لأمه ـ تأمل .

شاهد يرد على القاضي تهكمه

شهد رجل عند الحارث بن مسكين فقال له الحارث : ما اسمك ؟ قال : جبريل ، فقال له الحارث : لقد ضاقت عليك الأسماء حتى سميت بأسماء الملائكة ، فقال له الرجل : كما ضاقت عليك الأسماء حتى سميت باسم الشيطان فان اسمه حارث .

كان يقضي بعلمه

قال أحمد بن الحارث بن مسكين بلغني أن أبي قبل سليمان لغير شاهد شهد له وقال : أنا به عارف .

أبو حنيفة وجاره

كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغني في غرفته ويسمع أبو حنيفة غنائه فيعجبه وكان كثيراً ما يغني :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا　　ليوم كريهة وسداد ثغر

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من غد فأخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى عيسى بن موسى ، فقال له إن لى جاراً أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيراً ، فقال عيسى سلموا إلى أبى حنيفة كل من أخذه العسس البارحة ، فأطلقوا جميعاً ، فلما خرج المغنى دعا به أبو حنيفة ، وقال له سراً ألست كنت تغني يا بنى كل ليلة أضاعونى وأى فتى أضاعوا ، فهل أضعناك ؟ قال لا والله ، ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاك قال عد إلى ما كنت تغنيه فانى كنت آنس به ولم أر به بأساً قال أفعل .

ابن جامع المغنى وأبو يوسف

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد وكان ابن جامع حسن السمت قد بان أثر السجود فى جبهته وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ويلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مريسيًّا فى زى أهل الحجاز فوقف على ما كان يقف عليه الناس فى القديم حتى يؤذن لهم أو ينصرف .

وبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانص فلما هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه فوقعت عينه على ابن جامع فرأى سمته وحلاوة هيئته فجاء فوقف إلى جانبه ثم قال له أمتع الله بك توسمت فيك الحجازية والقرشية قال أصبت قال : فمن أى قريش أنت قال من بنى سهم قال فأى الحرمين منزلك قال مكة قال ومن لقيت من فقهائهم قال قل عمن شئت ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب فأعجب به ونظر الناس إليهما فقالوا هذا القاضي أبو يوسف فلما أقبل على المغنى ، وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع فقال أصحابه لو أخبرناه عنه ثم قالوا: لا، لعله لا يعود إلى موافقته بعد اليوم فلم نعمه .

فلما كان الإذن الثانى ليحيى غدا عليه الناس وغدا عليه أبو يوسف فنظر يطلب ابن جامع فرآه فذهب فوقف إلى جانبه فحادثه طويلا كما فعل فى المرة الأولى فلما انصرف قال له أصحابه أيها القاضى أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث قال نعم رجل من

قريش من أَهل مكة من الفقهاَء قالوا هـذا ابن جاَمع المغـنى قال إنا لله ، قالوا إن النَّاس شهروك بموافقته وأَنكروا ذلك من فعلك، فلماَ كان الإذن الثالث جاَء أَبو يوسـف ونظر إليـه فتنكبه ، وعرف ابن جاَمع أَنه قد أُنذر به فجاَء فوقف فسـلم عليه فرد عليه أَبو يوسف السلام بغير ذلك الوجه الذى يلقاه به ثم انحرف عنه ، فدنا منه ابن جاَمع ، وعرف الناس القصة ، وكان ابن جاَمع جهيراً فرفع صـوته ثم قال يا أَبا يوسف مالك تنحرف عـنى أَى شيء أَنكرت ؟ قالوا لك ، إنى ابن جاَمع المغنى فـكرهت موافقتى؟ أَسأَلك عن مسأَلة ثم اصنع ماشئت ومال النّاس فأَقبلوا نحوهما يستمعون وقال يا أَبا يوسف لو ان أَعرابياً جلفا ، وقف بين يديك فأَنشدك بجفاَء وغلظة من لسانه وقال :

يادارميَّة بالعلْيـاء فالسّند ... أَقْوت وَطال عليها سالُف الأَمَدِ

أَكنت ترى بذلك بأساً ؟ قاَل لا قد روى عن النبىصلى الله عليه وسلم في الشعر قول وروى فى الحديث .

قال ابن جامع فان قلت أنا هكذا ثم اندفع يغنى فيه حتى أتى عليه ثم قال يا أبا يوسف رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه . قال : عافاك الله أعفنا من ذلك ، ثم قال يا أبا يوسف أنت صاحب فُتْيا مازدتُه على أن حسّنته بألفاظى فحسن في السماع ووصل إلى القلب ثم تنحّى عنه ابن جامع .

* * *

قاضى القضاة أبو يوسف

أبو يوسف يتحدث عن نفسه

جاء بذرات الذهب أنه قال : كنت اطلب الحديث والفقه وأنارث الحال فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى يا بنى لا تمدد رجلك مع أبى حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش فقصرت عنه كثيراً فى الطلب وآثرت طاعة أبى فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال ما شغلك عنا

قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى فجلست ، ولما انصرف الناس دفع إلى صرة ، وقال استمتع بها فاذا فيها مائة درهم وقال لى إلزم الحلقة ، وإذا فرغت هذه فاعلمنى فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ثم كان يتعهدنى ، وما اعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتموات .

قال حماد بن أبى حنيفة رأيت أبا حنيفة يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فلا يقول أبو يوسف قولا إلا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا إلا أفسده أبو يوسف إلى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر وقال لا تطمع فى رياسة بلد فيها أبو يوسف وقضى لأبى يوسف على زفر ولم يكن بعد أبى حنيفة من أصحابه مثل زفر .

من مآثر أقواله

العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك

قال عند وفاته كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق الكتاب والسنة .

اللهم إنك تعلم إنى لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك متعمداً ، ولقد اجتهدت فى الحكم فيما يوافق سنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أشكل على فقد جعلت أباحنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

قال ابن خلكان : هو أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباس.

أول قاض للقضاة

قال المقريزى : فلما قام هرون الرشيد بالخلافة ولّى القضاء أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة ، فلم يقلد بلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف واعتنى به ، والأصل أن القاضى ليس له أن يستخلف غيره ما لم يؤذن له فى ذلك من المولىّ صراحة أو دلالة فاذا أذن له المولى وقال له جعلتك قاضياً وأذنت لك بالاستحلاف صار له أن يستخلف ، كما أنه إذا قال له جعلتك قاضى القضاة هو الذى يتصرف فى القضاة تقليداً وعزلا فيكون مأذوناً بالاستخلاف دلالة ، وينبغى لقاضى القضاة ان يتفقد قضاته ونوابه ، فيتصفح أقضيتهم ويراعى أمورهم وسيرهم فى الناس .

عهد إليه الرشيد فى ان يكتب له كتاباً خاصاً فى حماية الأموال وتوزيعها ، وهو الأثر الجليل الباقى من عهده إلى اليوم المعروف بكتاب الخراج .

قاض يأمر أهل مصر بتغيير زيهم

ولى القضاة محمد بن الليث الأدهم من قبل إسحق المعتصم سنة ٢٣٦ هـ ولما أن ولى نادى مناديه برئت الذمة من رجل كان فى يديه شىء من مال يتيم وغائب إلا أحضره ، فتسرع الناس إلى إخراج ما فى أيديهم وحملوه إلى بيت المال خوفا من سطوته بهم وقد شاهد الأخبار بنفسه ودونها بخطه وقضى فى كثير منها . وروى انه قال لقدهممت ان اضع يدى على كل حبس بمصر يتولاه أهله مما ليس له ثبت فى ديوان القضاة احتياطا له .

وقد اقام محمد بن ابى الليث رجلا يرفع على هارون بن عبدالله انه استهلك مالا من بيت المال فأمر ابن ابى الليث بإحضار هارون إلى مجلسه وناظره مرة بعد أخرى وامتهنه وثبت على هارون ما رفع إليه ، وذلك انه كان يدفع مفتاح التابوت إلى غير ثقة فاستهلك شيئاً كثيراً .

قيل كان زى اهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم لباس القلانس الطوال كانوا يبالغون فيها ، فأمرهم ابن ابى الليث

بتركها ومنعهم لباسها وأن يشبهوا بلباس القاضى وزيه ، فلم ينتهوا ، فجلس ابن أبى الليث فى مجلس حكمه فى المسجد ، واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس فأقبل عبد الغنى ومطر جميعاً فضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم ، وكانت قلانس الشيوخ يومئذ فى أيدى الصبيان يلعبون بها ، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى ابن أبى الليث ولا يحضرون مجلسه فى قلنسوة ، إلا أنه يظهر أنهم كانوا يلبسونها وهم مستخفون ، إذ قال قائل

وأخفت أيام الطوال وأهلها
فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم
والمشى نحوك بالرؤوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسها
بعد الجمال خطيئة لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقه
يجدونها من أعين ومخبر

فاذا خلا بهم المكان مشوا بها
وتأبطوها فى المكان الأعمر

ولكن حدث أن النيل توقف فاستسق أهل مصر وحضر ابن أبى الليث القاضى الاستسقاء فوثب المصريون عليه بسبب غلاء القمح وأخذوا قلنسوته فلعبوا بها كما فعل بقلانسهم .

* * *

رؤية هلال رمضان

طلب الناس هلال رمضان وعبد الله بن لهيعة على القضاء بمصر فلم ير وأتى رجلان فزعما أنهما قد رأياه فبعث بهما الأمير موسى بن على بن رباح إلى أبى لهيعة في نفر من أهل المسجد تعرفوا بالصلاح فطلبوا الهلال فكانوا يطلبونه بالجيزة فهو أول القضاة حضر فى طلب الهلال ثم تعدوا الجسر فى زمن هاشم بن أبى بكر البكرى وطلب الهلال فى حنان بن أبى حبس ، قال أبو حيتمه ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان بن أبى الليث فطلبه فى أصل المقطم .

القضاء فى أحباس مصر

كان من أحسن ما عمله لهيعه فى ولايته أن قضى فى أحباس مصر كلها فلم يبق فيها حبساً حتى حكم فيه أما ببينة تثبت عنده أو بإقرار أهل الحبس قال بعضهم ذكرت له يوماً وقلت لقد

أحسن القاضي فيما فعل من ذلك فقال لى : يا أبا الحسن كنت أحب ذلك من زمان وسألت الله أن يبلغنى الحكم فيها فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه وحددت الشهادة به .

قاض ينتقل من مصر إلى العراق ليحكم فى قضية

كان الغوث بن سليمان قاضياً بمصر ١٦٧ — ١٦٨ ﻫ ووقع بين أم المهدى أم موسى يزيد بن منصور بن عبد الله الحميرية وبين أبى جعفر خصومة ، فقالت لا أرضي إلا بحكم غوث بن سليمان فحمل إلى العراق حتى حكم بينه وبينها ورجع إلى مصر

قدمت امرأة من الريف وغوث ماض فى محفة فوافت غوثا عند السراجين رائحاً إلى المسجد فشكت إليه أمرها فنزل عن دابته في جوانب السراجين وكتب لها بحاجتها وركب إلى

المسجد فانصرفت المرأة وهي تقول أصابت والله أمك حين أسمتك عوثا أنت غوث عند اسمك :

هجو قاض لشعره المرجل

كان مسعاد بن خبر شاعراً فخاصم إلى المفضل بن فضالة ، ولما كان فى مجلس القضاء أدخل يده فى كمه ليخرج قضيته فاخرج الهجو إليه فدفعه إليه وهو يقول :

خف الله واسمع من مقالى مفضل
فإنك عن فضل القضاء ستسأل
وقد قال أقوام عجبت لقولهم
أقاض له شعر طويل مرجل

فرمى المفضل الرقعة وقال له قم لا حياك الله

كان المفضل أول القضاة طول السجلات ونسخ بها

كتب السخاه والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله .

أول قاض بمصر طلب انتقال واليها إلى مجلسه

قال الكندى قدم محمد بن مسروق الكوفى والياً على القضاء ، وكان أعور فأظهر تجبراً ، وكان ولاة مصر يحضرون القضاة إلى مجالسهم كما يحضر الفقهاء فلماقدم ابن مسروق أرسل إليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره لحضور مجلسه فقال لو كنت تقدمت إليك فى هــذا لفعلت بك وفعلت يا كذا كذا وكذا فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ .

لم يكن للقضاة قبله قمطر إنما كان كاتب القاضى يحضر ومعه الكتب فى منديل فأول من جعل له القمطر محمد بن مسروق فكان يختمها فتودع فاذا جلس أحضرت .

أموال اليتامى ببيت المـال

أول قاض أدخل أموال اليتامى بيت المال خير بن نعيم فى ولايته الثانية بأمر أمير المؤمنين أبى جعفر وسجل فى كل منها سجلا بما يدخل فيها وما يخرج ، وقد كان القضاة يودعونها عند الثقات فحصل من ذلك شر عظيم فلما ولى القضاء العمرى عمل تابوت القضاة الذى كان فى بيت المـال أنفق عليه أربعة دنانير قال محمد بن يوسف كانت تجمع أموال اليتامى ومال من لاوارث له ، وكان مودع القضاة بمصر

القاضى بحاصل ماتم

قال ابن بطوطه فى رحلته المشهوره عن قاضى أسيوط وقت أن مر بها وهو شرف الدين بن عبدالرحيم ان هذا القاضى يلقب « بحاصل ما تم » لقب شهر به وأصـــله أن القضاة بديار مصر

والشام كان بأيديهم الصدقات لأبناء السبيل ، فاذا أتى فقير بمدينة من المدن قصد القاضى فيها فيعطيه ماقدر له فكان هذا القاضى إذا أتاه فقير يقول له « حاصل ماتم » أى لم يبق من المال الحاصل شىء فلقب بذلك ولزمه .

أول من نقل دواوين الحكومة

كان أحمد بن محمد بن أبى العوام أول من نقل دواوين الحكومة إلى الجامع ، وكانت قبله تكون عند القاضى ثم تنقل إذا مات أو عزل إلى دار الذى يلى بعده ، فاتخذ ابن أبى العوام مقرها فى بيت المال بالجامع

إنا لسنا من أهل الشهادات

وكل سعيد بن عبد الرحمن الداخل عند ابن بشر القاضى وكيلا يخاصم عنه بشىء اضطر إليه ، وكانت بيده وثيقة فيها

شهادات لشهود قد ماتوا ، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهد آخر فشهد لسعيد ذلك الشاهد وضربت على وكيله الآجال فى شاهد ثان وجد به الخصام ، فدخل سعيد بالكتاب على الحكم وأراه شهادته فى الوثيقة ، وكان قد كتبها قبل الخلافة فى حياة أبيه وعرفه حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفا من بطلان حقه .

وكان الحكم يعظم سعيداً عمه ويلتزم مبرته ، فقال له : ياعم إنا لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ونخشى أن توقفنا مع القاضى موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا فصِره فى خصامك حيث صيّرك الحق إليه وعلينا رد ما انتقصك .

فأبي عليه وقال : سبحان الله وما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك وأنت وليّته وهو حسنة من حسناتك وقد لزمك أن تشهد لى بما علمته ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك . فقال :

بلى إن ذلك لمن حقك كما تقول ولكنك تدخل علينا به داخلة فإن أعفيتنا منه فهو أحب إلينا وإن اضطررتنا لم يمكنا عقوقك .

فعزم عليه من لم يشك أن قد ظفر بحاجته ، فأرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه وخط شهادته بيده فى قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما هذه شهادتى بخطى فأدياها إلى القاضى .

فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها إليه فقال لهما لقد سمعت منكما فقوما راشدين فى حفظ الله .

وجاء وكيل سعيد وتقدم إليه مدلا واثقاً وقال له : أيها القاضى قد شهد عندك الأمير أصلحك الله تعالى فما تقول ؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر إليه ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تعمل عندى ، فجئنى بشاهد عدل فدهش الوكيل ومضى إلى سعيد الخبر فاعلمه فركب من فوره إلى الحكم وقال له : قد ذهب سلطاننا وأبطل بهاؤنا يجترىء هذا القاضى على رد شهادتك وأخذ يوغر

صدر الأمير على قاضيه ، فقال له الأمير : وهل شككت أنا فى هذا يا عم ، القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم فعل ما يجب عليه ويلزمه وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه فأحسن الله جزاءه فغضب سعيد الخير ، وقال . هـذا حبي منك فقال : نعم قد قضيت الذى على لك ولست والله أعارض القاضى فيما احتاط لنفسه ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله ، ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك . قال : لمن عاتبه ياعاجز أما تعلم أنه لابد من الإعذار فى الشهادات فمن كان يجتريء على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه .

* * *

إعتقال القاضى بكار الثقفى

ذكروا عن أحمد بن طولون صاحب مصر أنه كان يبالغ فى إكرام قاضيها بكار الثقفى حتى أنه كان يدفع له كل سنة ألف دينار على المقرر له ، فكان بكار يتركها بختمها ولا يتصرف فيها ، فلما دعاه إلى خلع الموفق بن المتوكل وهو والد المعتضد امتنع بكار ، فاعتقله أحمد ثم طالبه بجملة المبلغ الذى كان يأخذه كل سنة فحمله إليه بختمه وكان ثمانية عشر كيساً فاستحى أحمد منه وكان يظن أنه أخرجها وأنه يعجز عن القيام بها .

مكث فى السجن مدة سنين ، وكان يحدث فى السجن من طاق فيه لأن أصحاب الحديث شكوا إلى ابن طولون إنقطاع إسماع الحديث من بكار وسألوه أن يأذن له فى الحديث ففعل .

أراد أحمد بن طولون أن يستحله

بقى بكار فى السجن إلى أن عرضت لأحمد بن طولون علتا التى توفى فيها فوجه إليه يستحله ، فقال للرسول : قل له أنه

شيخ كبير وأنت عليل مدنف والملتقى قريب والله الحاجز بيننا ، وتوفى أحمد بن طولون فعرف بكار بموته قال : مات البائس .

وكان يحاسب نفسه بعد الجلسة

وكان أحد البكائين التالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من مجلسه خلا بنفسه ، وعرض عليه قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى وكان يخاطب نفسه ويقول يا بكار تقدم إليك رجلان فى كذا وتقدم إليك خصمان فى كذا وحكمت بكذا فما يكون جوابك غداً وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أراد اليمين ، وكان يحاسب أمناءه فى كل وقت : ويسأل عن الشهود فى كل وقت ، وبقيت مصر بلا قاض ثلاث سنين .

رد بكار شهادة رجل زاهد

قال أبو حاتم بن أخى بكار قدم على عمى رجل من البصرة له علم وزهادة ونسك فأكرمه وقربه وأدناه ، وذكر أنه كان معه فى المكتب ومضت له أيام فجاء الرجل فى شهادة ومعه شاهد من

شهود مصر فما قبل شهادته ، فقلت لعمى : هذا رجل زاهد وأنت تعرفه ، فقال : يا ابن أخى ما رددت شهادته إلا أنه كنا صغاراً وكنا على مائدة عليها أرز وفيها حلو فنقبت الأرز بإصبعى فقال لى : « أخرقتها لتغرق أهلها » فقلت له : أتهزأ بكتاب الله على الطعام ثم أمسكت عن كلامه مدة وما أقدر على قبول قوله وأنا أذكر ذلك منه

من نوادر بكار

كان بكار بن قتيبة فى غاية العفاف والسلامة واتفق أن دخل عليه بعض أمنائه وهو ممزق الثياب ، فقال : بعثنى أحفظ تركة فلان فصنع بى جاره هذا . فقال : أحضروه ، فأحضره الأعوان فقال بكار : أنت صنعت هذا بأمينى ؟ قال : نعم فقال : خذوه ، فأخذه الأعوان فسقط ميتاً فدهش بكار فقال أمناء القاضى : هذا عمله اليوم مات مرتين فاستوى الرجل جالساً فقال : كذبوا والله ما مات إلا الساعة ورقد ، فجعل بكار يرش عليه الماء ويشممه الكافور ويرفق به ويعده إلى ان قام فصرفه وأقبل على أعوانه فقال : هددتموه فلو وافاه أجله .

قاض يثنى على نفسه

هو عبد الرحمن بن مسهر ، كان قاضيا على بليدة بين بغداد وواسط يقال لها المبارك ، فلما بلغه خروج الرشيد ومعه أبو يوسف وأنهما سيمران به ، فقال لأهل المبارك : أثنوا على عندهما ، فأبوا عليه ، فلبس ثيابه وتلقاهما ، وقال : نعم القاضى قاضينا ثم مضى إلى موضع آخر وأعاد عليهما هذا القول ، فالتفت الرشيد إلى أبى يوسف ، وقال : يايعقوب قاضى فى موضع لا يثنى عليه إلا رجل واحد بئس القاضى ، فقال أبو يوسف والعجب يا أمير المؤمنين : إنه هو القاضى وهو يثنى على نفسه ، فضحك الرشيد ، وقال : هذا أظرف الناس ، هذا لا يعزل أبداً .

الطعن فى الأحكام للخليفة

وقعت على القضية الآتية بالكندى ويبين منها أنه كان من حق المحكوم عليهم الطعن فى الأحكام للخليفة وقد جاء بكتاب تاريخ القضاء فى الإسلام بأن الحكم إذا صدر كان له حجته ولا يعترض على ذلك بما قاله عمر فى كتابه لأبى موسى الأشعرى ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم راجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شىء ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، إذ معنى كلام عمر هذا أنه إذا ظهر للقاضى وجه آخر غير ماقضى به فإنه يعمل به مستقبلا ولا يصر على الأول لأنه هو قد فعل ذلك ، فقد روى أنه قضى فى حادثة بقضاء ثم قضى فى مثلها بقضاء آخر فسئل فقال : تلك كما قضينا وهذه كما نقضى ، وروى عنه أيضاً أنه لقى رجلا فقال له : ما صنعت قال : قضى على وزيد بكذا : قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا ،فقال له الرجل : ومايمنعك والأمر إليك ، قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفعلت ولكن أردك إلى رأى والرأى مشترك فلم ينقض ما قال على وزيد

أما القضيه على ما رواها الكندى فتتحصل فى أنه حكم فى دار الفيل سنة ٢٤٠ ﻫ وهى دار على عثمان مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى جماعة من قضاة مصر منهم توبه والمفضل والعمرى وهارون وحكم هارون ابن عبد الله فيها باخراج بنى البنات من العقب ، فلما ولى الحارث بن مسكين فسخ حكم هارون ورفع يد بنى السائح منها فخرج إسحاق بن ابراهيم بن السائح إلى المتوكل يرفع على الحارث بن مسكين ويتظلم منه وأحضر قضيته إلى العراق وأمر المتوكل بإحضار الفقهاء فنظروا فى قضيته وخطؤوه فيها وتناولوه بألسنتهم وكان الفقهاء الذين حضروا فى قضيته من الكوفيين وإنما حكم الحارث على مذهب المدنيين وبلغ الحارث ما جرى هناك من ذكره فكتب يسأل أن يعفى من القضاء فكتب إليه ابن عبد الواحد الهاشمى أنهيت إلى أمير المؤمنين أن كتابك وصل باستعفائك مما تقلدته من أمر القضاء بمصر وأمر أيده الله بإجابتك إلى ذلك وأعفاك مما تقلدت أسعافالك بما سألت وتفضلا لما أدي إلى موافقتك فيه فرأيك ابقاك الله فى معرفة ذلك

والعمل بحسبه وكان قد ورد الكتاب بذلك على الحارث فى ربيع الآخر سنة ٢٤٥ هـ ثم ورد كتاب المتوكل على بكار بن قتيبة يأمره بالنظر فى ظلامة ابن السائح وأن يرد إلى يده ما كان الحارث أخرجه عنها .

وقيل أن بكاراً استعظم فسخ حكم الحارث فيها إذ كان الحارث إنما حكم فيها على مذهب أصحابه المدنيين ولم يزل يونس ابن عبد الأعلى يكلم بكاراً ويجسره حتى حكم فيها ورد إلى ابن السائح ما كان بيده فيها .

ويؤخذ من تردد بكار بالحكم بما رأى الخليفة أن رأيه لم يكن ملزما للقاضى الذى يحكم فى القضية مرة ثانية .

يحي بن أكثم

هو قاضى قضاة المأمون ينتهى نسبه إلى أكثم بن صيفى حكيم العرب وخطيبها ولى القضاء صغيراً ففى شذرات الذهب أنه ولى القضاء وسنه ثمانى عشرة سنة فقال أهل البصرة كم سن القاضى فعلم أنه استصغر فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة قاضياً ومن معاذ الذى بعثه النبى صلى الله عليه وسلم قاضياً على اليمن .

بلغ عند المأمون منزلة رفيعة كما يظهر من الرواية الآتية ، قال ثمامة كان يحي بن أكثم يماشى المأمون يوما فى بستان موسي والشمس عن يسار يحي والمأمون فى الظل وقد وضع يده على عاتق يحي وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد ثم كر راجعاً فى الطريق التى بدأ فيها ، فقال ليحي كانت الشمس عليك لأنك كنت عن يسارى وقد نالت منك فكن الآن حيث كنت وأتحول أنا إلى حيث كنت ، فقال يحي : والله يا أمير المؤمنين

لو أمكنني أن أقيك هول المطلع بنفسي لفعلت ، فقال المأمون : لا والله لابدّ من أن تأخذ الشمس مني مثل ما أخذت منك وتحول يحيي وأخذ من الظل مثل الذي أخذ منه المأمون ، وقال المأمون : أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته ثم على الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى ، ويدل على عظيم قدره أيضاً البيتين الآتيين لابن المعدل :

تكلفني إذلال نفسي لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما

تقول سل المعروف يحيي بن أكثم فقلت سليه رب يحيي بن أكثما

من نوادره

وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه فصادف يحيي بن أكثم جالساً ينتظر الإذن فقال له : إن رأيت أعزك الله أن تذكر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل ، قال : لست أعزك الله بحاجبه ، قال : فإن لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت وأعلم ان الله عز وجل جعل في كل شيء زكاة وجعل زكاة المال رفد المستمين وزكاة الجاه إغاثة الملهوف واعلم ان الله

عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت أو التغيير إن كفرت وإنى لك اليوم أصلح منك لنفسك ، لأنى أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت تأبى ، فقال له يحيى : أفعل وكرامة وخرج الإذن ليحيى فلما دخل لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابى فأذن له

دخوله على المأمون مع إسحاق الموصلى

سأل إسحاق الموصلى المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين فإذا أراده للغناء غناه فأجابه إلى ذلك ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له ، قال فحدثنى محمد بن الحارث أنه كان هو ومخارق وعلويه جلوساً فى حجرة لهم ينتظرون جلوس المأمون وخروج الناس من عنده إذ دخل يحيى بن أكثم وعليه سواده وطويلته ويده فى يد إسحاق يماشيه حتى جلس معه بين يدى المأمون فكاد علوية أن يجن وقال يا قوم أسمعتم أعجب من هذا يدخل قاضى القضاة

ويده فى يد مفن حتى يجلسا بين يدي الخليفة ثم مضت على ذلك مده .

هذا والسواد شعار بنى العباس أما القلنسوه فكان يلبسها القضاة وكانت عالية مُدْعمة بعيدان .

قال ابن خلدون فى مقدمته إن من إغلاط المؤرخين ماينقلونه عن يحيى بن أكثم قاضى المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر المأمون فى الخمر وأنه سكر ليلة على شربة فدفن فى الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه :

يا سيدى وأمير الناس كلهم
قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إنى غفلت عن الساقى فصيرنى
كما ترانى سليب العقل والدين

سبب عزله

غضب المأمون على يحى غضبة اختلف المؤرخون فى سببها فيقل ان المأمون تواتر إليه النقل عن سوء أخلاق القاضى يحى

ومحبته إلى الغلمان فأحب أن يقف على ذلك بنفسه فدس إليه أحد الغلمان فبدر من القاضى ما لا يستحسن فعزله المأمون ، ويروى صاحب الأغانى الحكاية الآتية :

نظر المأمون إلى يحي بن أكثم يلحظ خادماً له فقال : للخادم تعرض له إذا قمت فأنى سأقوم للوضوء وأمره ان لا يبرح وعد إلى بما يقول لك .

وقام المأمون وأمر يحي بالجلوس ، فلما قام غمزه الخادم بعينه ، فقال يحي : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، فقال له : عد إليه فقل له : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . فخرج الخادم إليه فقال له : ما أمره به المأمون فأطرق يحي وكاد يموت جزعا ، وخرج المأمون وهو يقول :

قم فانصرف واتق الله وأصلح نيتك

على أنه مما يجب ملاحظته أن كتاب الأغانى كثيراً ما اشتمل على الأخبار الموضوعة ، وليس أدل على ان هذا الذى

ذكره عن القاضي يحيى إنما كان من التحرضات التي يزجيها شامتوه حسداً وحقداً عليه من الحادثة الآتية كما وردت بالأغاني نفسه

كانت متيم خادمة لبعض وجوه أهل البصرة تعلقها عبد الصمد بن المعدل وكانت لا تخرج إلا متنقبة فخرج عبد الصمد يوماً للنزهة وقدمت متيم إلى ابن عبدالله بن الحسن الحر القاضي واحتاج إلى أن يشهد عليها فأمرها بأن تسفر فلما قدم عبد الصمد قيل له لو رأيت متيم وقد أسفرها القاضي لرأيت شيئاً حسناً لم تر مثله فقال عبد الصمد قوله :

ولما سرت عنها القناع متيم ... تروّح منها العنبرى متيما
رأى ابن عبيد الله وهو يحكم ... عليها لهـا طرفاً عليه محكما
وكان قديماً كالح الوجه عابسا ... فلما رأى منها السفور تبسما
فإن تصب قلب العنبرى فضلة ... صبا باليتامى قلب يحيى بن أكثما

فبلغ قوله يحيى فكتب إليه عليك لعنة الله أى شيء أردت مني أتاني شعرك من البصرة ، فقال لرسوله : قل له متيم أقعدتك

على طريق القافية ، فإذا كان مجرد سياق الوزن والقافية قد اقتضيا التشهير بهذا القاضى الجليل فهل يمكن أن يكون لما جاء عنه بالأغانى أى قيمة والصحيح ما جاء عنه فى ابن عابدين .

رئيس محكمة للمناوئين لمذهب المعتزلة

هو أحمد بن أبى دؤاد قاض من المعتزلة أصله من البصرة وكانت له حظوة كبيرة عند المأمون لعلمه ومواهبه وسرعان ما أصبح من أصدقاء هذا الخليفة حتى نصح أخاه وخلفه المعتصم أن يقربه وأن يسمع لمشورته .

وكان ابن أبى دؤاد من الأنصار المتحمسين لمذهب المعتزلة ولهذا أقامه المعتصم بعد استخلافه عام ٢١٨ هـ ٨٣٣ م قاضياً للقضاة وكان مذهب المعتزلة قد عظم شأنه وأصبح فى عهد المأمون المذهب الرسمى للدولة كما أنشئت محكمة رسمية ذات صبغة دينية تبحث عن المناوئين لأراء هذا المذهب وترأس أحمد مناقشات هذه المحكمة بصفته قاضياً لقضاة بغداد ولكنه أظهر

مع ذلك تسامحاً ورحمة يندر وجودهما فى ذلك الحين ولقد كان نفوذ هذا القاضى على المأمون عظيما كما كان مقرباً من الخليفة الواثق فلما مات هذا الخليفة رغب بعض رجال الدولة وقوادها فى مبايعة ولده الأصغر ولكنهم استخلفوا — عملا بنصيحة وصيف قائد الجند التركى — جعفر أخا الواثق وأعطاه أحمد لقب المتوكل ومع ذلك فإن المتوكل لما بدأ يقف موقف العداء من تعاليم المعتزلة ويتجه شيئاً فشيئاً لأهل السنة لم يستطع القاضى الواسع النفوذ بل وزعيم المعتزلة أن يحافظ على منصبه الخطير أمداً طويلا فبعد استخلاف المتوكل بمدة من الزمن أصابه الفالج فأسند القضاء إلى ولده .

كيف كان وكيف انتهى

وقد غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد وآله وفى سنة سبع وثلاثين ومائتين صادر منهم ستة عشر ألف ألف درهم كما جاء بشذرات الذهب .

وجاء بنفس المرجع أنه كان فصيحاً مفوها شاعراً جواداً

وهو الذى شغب على الإمام أحمد بن حنبل وأفتى بقتله ، قال وله عطايا جزيلة وشفاعة إلى الخلفاء مقبولة وفيه يقول الشاعر :

قد آنست مساوى كل دهر محاسن أحمد ابن أبى دؤاد

ولم يكن أحمد بن أبى دؤاد مقتصراً على القضاء بل كان يشير على المعتصم فى كثير من أمور الدولة وكان لا يقطع فى أمر خطير من دونه .

سأل أحمد ابن أبى دؤاد يوماً المعتصم إطلاق ألف دينار ليحفر بها نهراً فى أقاصى خراسان ، قال له المعتصم وما على من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين أن الله يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر ادناه ولم يزل به حتى أطلقها .

ما كان يقوله عنه أهل زمانه

قال أحد الأدباء الحسين بن الضحاك لبعض المتكلمين إن ابن أبى دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله .

أحمد بن خلكان

صاحب كتاب وفيات الأعيان ، وأنباء ابناء الزمان ؛ قال فى مقدمته مشيرا إلى ترتيب الكتاب وفق الحروف الأبجدية لا إلى السنين .

هذا مختصر فى علم التاريخ دعاني إلى جمعه أنى كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولى النباهه وتواريخ وفياتهم وموالدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع لى منه شيء حملنى على الاستزادة و كثرة التتبع فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده فى كتاب ولم أزل على ذلك حتى حصل عندى منه مسوّدات كثيرة فى سنين عديدة وعلق على خاطرى بعضه فصرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب فى استخراجه لكونه غير مرتب فاضطررت إلى ترتيبه فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين فعدلت إليه والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة ثم — ليكون أسهل للتناول وإن

كان هذا يقضى إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر فى العصر وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين لكن هذه المصلحة أحوجت إليه —

وذكرت محاسن كل شخص وما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله والدواعى إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفننا .

مثل لمن يذكر عنده أحداً بغيبه

حكى أنه جاءه إنسان فحدثه فى إذنه أن عِدْلين — مثنى عدل وهو العادل المرضى والمقنع فى الشهادة — فى مكان يشربان الخمر فقام من مجلسه ودعى برجل وقال اذهب إلى مكان وأمر من فيه بإصلاح أمرهما وإزالة ما عندهما ثم عاد فجلس مكانه إلى علم أن نقيبه — النقيب شاهد القوم وضمينهم وعريفهم — قد حضر فدعا بذلك الرجل وقال أنا أبعث معك النقيب فإن كنت صادقا ضربتهما الحد وإن كنت كاذبا أشهرتك وقطعت لسانك وجهز

النقيب معه فلم يجد غير صاحب البيت وليس عنده شيء من ذلك فأحضر الدِّرَّة وهدده فشفع النقيب فيه فقبل شفاعته منه ثم أحضر مصحفاً وحلفه ألا يعود .

فى كتاب شذرات الذهب ، قال الشيخ تاج الدين الغزاوى فى تاريخه كان ابن خلكان قد جمع حسن الصورة وفصاحة المنطق وغزارة الفضل وثبات الجانب ونزاهة النفس ، وقال الذهبى : كان إماماً فاضلا متقناً عارفا بالمذهب حسن الفتاوى جيد القريحة بصير بالعربية علامة فى الأدب والشعر وأيام الناس كثير الاطلاع حلو المذاكرة وافر الحرمة من رواة الناس كريماً جواداً ممدَّحا .

ما شنع به عليه

شنع عليه بعض المؤرخين كابن كثير وغيره من جهة اختصاره تراجم العلماء وتطويله فى تراجم الشعراء والأدباء ولعل العذر عنه ما أشار إليه فى المقدمة من أن الناس قد تمله إذا كان

مقصوراً على أسلوب واحد والدواعى إنما تبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفننا .

قيل أنه أغرم بحب الملك المسعود بن المظفر صاحب حماة وقد وقفت على الروايتين الآتيين فى العدد الأول من موسوعته التى أعاد طبعها الدكتور أحمد فريد رفاعى ، وتولت وزارة المعارف مراجعتها النهائية وقد ذكر الروايتين الآتيتين بعض من ترجموا له أما الرواية الأولى فهى :

قال القاضى جمال الدين عبد القادر التبريزى كان الذى يهواه القاضى شمس الدين بن خلكان الملك المسعود بن المظفر صاحب حماة وكان قد تيمه حبه وكنت أنا عنده فى العادلية فتحدثنا فى بعض الليالي إلى ان راح الناس من عنده ، فقال : نم أنت ههنا والقي على فروة فخرج وقام يدور حول البركه فى بيت العادلية ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان المذكوران :

أنا والله هالك   آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى   قد أقامت قيامتى

أما الرواية الثانية فهى :

واختلف الناس فى أخلاق ابن خلكان وهو يعلم ما يقول الناس فيه سأل بعض أصحابه يوماً عما يقوله أهل دمشق فيه فاستعفاه فألح عليه فقال : يقولون أنك تكذب في نسبتك وتأكل الحشيش وتحب الصبيان . فقال : أما النسب والكذب فيه فإذا كان لا بد منه كنت أنتسب إلى العباس أو إلى على بن أبى طالب أو إلى واحد من الصحابة ، وأما النسب إلى قوم لم يبق لهم ذكر وأصلهم قوم مجوس فما فائدة ذلك كله — وكان ينسب إلى البرامكة — وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم ، وإذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر لأنه ألذ ، وأما صحبة الغلمان فإنى غداً أجيبتك عن هذه المسألة ، ولكن لم ينقل ما أجاب به .

واختلف فى ضبط لفظ خلكان ، وقيل : أنه من فعلين خل أمر من خلا : أى اترك ، وكان ناقصه ، وسبب تسميته بذلك انه كان كثيراً يقول : كان والدى كذا والدى كذا ، فقيل له : خل كان ، وبعضهم ينطقه بسكون اللام والباقى على حاله ، وقيل : ان خلكان اسم لبعض أجداده .

رسالة عن حال القضاه والأنظمة المتبعة وقت إغارة الفرنسيين على مصر

أثناء بحثى فى دار الكتب المصرية عثرت على رسالة مخطوطة كتبها الشيخ العريشى قاضى العسكر بمصر زمن إغارة الفرنسيين عليها فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وطبعها جوابا على أسئلة الحاكم الفرنسى وقتئذ وقد رأيت نقلها لطرافتها التاريخية ولما اشتملت عليه من معلومات .

السؤال الأول : عدد البنادر التى يقيم بها القضاة محل الشرع والمحاكم بكامل الأقاليم . الجواب : المناصب المصرية ستة وثلاثون منصبا ، ستأتيك مفصلا كل ذلك محل شرع بكامل الأقاليم . السؤال الثانى : عدد البنادر الكبار وما يتعلق بها من النواحى لهذا المقصد بتعيين المحل المختص بإقامتهم ، ثم وتاريخ وقت لبسهم على هذه الوظيفة مع صفات وكيفية لبسهم ، ثم إن كان جميع هؤلاء لبسوا من اسلامبول أو أنهم كذا أو منهم خلافه

وإن كان فيهم من كان قد حضر من هناك وفى إنتهاء سنته نقر رها هنا أم فيهم من ليس من قاضى مصر .

الجواب على ذلك : البنادر الكبار من المناصب المصرية ، أولها : مصر المحروسة وتابعيتها .

بولاق ، ومصر القديمة ، ثم ثغر الإسكندرية ، ثم ثغر رشيد ثم ثغر دمياط ، ثم المنصورة ، ثم المحلة الكبرى ، ثم منف العليا ، ثم ماسوى مصر المحروسه يسمى باصطلاح القضاة رتبة ستة فهذه هى المناصب الكبرى ، وتحتها أدون منها الجيزه ، ودمنهور وبنى سويف ، وبلبيس الشرقية ، والفيوم ، وإبيار وتسمى فى اصطلاح القضاه رتبة موصلة ، وتحتها أدون منها وهى الرتبة الثالثة ، أولها : الخانقاه وتسميها العامة الخانكة ، ومنية ابن خصيم ومنفلوط ، وجرجاه ، وزفته ، والمنزلة . ورتبة رابعة وهى : أسيوط ، وتذمنت ، وشلشلمون ، والبهنسا ، وسنديون ، والنحارية وبعدها رتبة خامسة وهي : سنهوا والجامع اشمونين ، والفشن ، ومحلة أبا على الغربية ، ومحلة مرحوم ، وفوه ، وأنزل من الكل

رتبة سادسة ، ويقال لها باصطلاح القضاة رتبة دخول أولى لأن القضاة لا يتوصلون إلى ما فوقها إلا بعد الدخول فيها فهي بمنزلة الباب إلى مناصب القضاء ويسلكون فى ذلك سبل الترقى من الأعلا إلى الأدنى ، أولها : طحطا ، والمنشية ، وقناقوص ، وأبو تيج ، والواح ، والبرلس ، وتقدم مصر المحروسة كمالة الستة والثلاثين منصب بالأقاليم اليوسفية وبعض هذه المناصب عاطل وإنما هى رسم قديم فهذه المواضع محل إقامة القضاه قديماً ؛ وأما النواحى المتعلقة بكل منصب فكثيرة لكل منصب نواحى معلومة مقيدة بسجلات عندهم وإقامة القضاة فى هذه المناصب المذكورة أعلاه ، وأما تاريخ وقت لبسهم وتقريرهم فى هذه المناصب ليست موقتة بوقت .

وأما صفات وكيفية لبسهم هما كنايتان عن إذن كبير القضاة لهم بسماع الدعوى وفصل الخصومات وكتابة الوقائع الشرعية وقيدها فى التسجيلات المحفوظة ويكون المأذون نائباً عن موليه

وأما صفات القضاة فهم ناس فقراء أصحاب عيال مستحقون لهذه الخدمة الشريفه فيأخذونهم لفضلة العلم والعقل وراحة الناس

وأما من كان مقلداً من اسلامبول قبل حضور الجمهور الفرنساوية بأوراق وسندات تأتى إليهم من اسلامبول فهم خمسة أنفار — ذكر أسماءهم — وأما باقى المناصب قررنا فيها من كان أهلا لها من أولاد العرب المصريون المستحقون لذلك . السؤال الثالث : من كان من القضاة قبل حضور الجمهور الفرنساوية وأين كان مقيما وهل كان من أهالى أقليم مصر أم غريباً من تلك النواحى وكم رجل هم كل قاضى أقليم والكتبة وعدد نوابه الموجهة منه بالنواحى المتعلقة بالأقاليم وإن أمكن لديكم ولو وجه تخمينى وعدد من يقال بقول العلم عنهم ويعدون من أهل الشريعة وأئمة الهدى فهم مصرفون بالعمل بإذن من القاضى .

الجواب عن ذلك : أما قاضى مصر المحروسه حين دخول الجمهور الفرنساوية إلى مصر المحروسه السيد محمد فتحى شمقجى زاده، ونائبه طاهر أفندى وولده طالب ومحمد أفندى زكى وبقية أتباعه لا نعرفهم ، وأما باقى القضاة فى الأقاليم والكتبة المنوط بهم وعدد وكلائه ونوابه الموجهة من أهل العلم إلى آخر السؤال فلا

نحيط بكلهم علماً فمن تولى من طرفنا نعلمه ومن كان بعيداً عنه لا نعلمه وأن تصفحنا عنهم فيحتاج الحال إلى سفر بعيد ووقت واسع حتى نقيده ونتبينه .

السؤال الرابع : تعينوا لنا المحلات الخالية الآن من القضاة فى الأقاليم المصرية . الجواب عن ذلك : ليس فيها خالى سوى المعطل منها مثل : السريس ، والمنزلة ، والنحاريه ، والبهنسا ودلجا وطحطا ، وأبو تيج ، وقنا ، وقوص ، والواح ، وتعطيلها بحسب علمنا . وأما في الواقع بتباعد البلاد عنا فلا نعلم . أما المحلات الباقية ليست خالية من القضاة . فكل قاض منهم له نواب هكذا قاعدة مصر من قديم الزمان

السؤال الخامس : أسماء قضاة البنادر بمدرجاتهم ومعاونيهم ومن هناك من أصحاب علم وهم أئمة تريمة .

الجواب عن ذلك قاضي اسكندرية ـ ذكر اسماء القضاة ـ ورشيد ، ودمياط ، والمنصورة ، والمحلة الكبرى ، ومنف العليا ، ذفته ، ثمنود ،

أبا على دمنهور ، شلشلمون ، بلبيس ، بنى سويف ، منية ابن خصيم منفلوط ، أسيوط ، جرجا — وذكر أسماءهم وكل بندر من البنادر الكبار معين من طرفنا وقد سميناه لكم وأما عدد رجالهم ومعاونيهم فهذا أمر لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى وأمره يسهل عليكم دوننا

السؤال السادس : تعينوا لنا ما بمصر المحروسة خاصة من المحاكم وبمصر القديمة ، وبولاق بأسمائهم وصفاتهم وحال لبسهم ، الجواب عدد المحاكم بمصر المحروسة اثنى عشر منها المحلة الكبرى وهى معلومة لكم وهى خاصة بكل قاض عظيم القدر يأتى من اسلامبول من الترك ، والثانية منها محكمة جامع الزاهد بخط باب الشعرية ، والثالث محكمة باب الشعريه والرابع محكمة جامع الحاكم ، والخامس : محكمة الصالحية بخط النحاسين والسادس محكمة باب زويلة ، والسابع محكمة باب الخرق ، والثامنة محكمة قوصيون ، والتاسع محكمة طولون والعاشر محكمة قناطر السباع والحادى عشر محكمة مصر القديمة ، والثانى عشر محكمة بولاق المحروسة ، وقضاة مصر من أهلها ماعدا قاضى محكمة المحلة الكبرى

وكل محكمة فيها كاتب أو اثنين أو ثلاثة ، ولا زيادة على ذلك
ـ لاستغناءات الناس بمحكمة المحلة الكبرى ـ وتوليتهم من كل قاض
يأتى إلى مصر ، وأما لبسهم منه وهو كناية عن إذنه لهم بسماع
الدعاوى فهم فى الحقيقة نوابه ، وأما أسماؤهم — ذكر أسماءهم —

والله سبحانه وتعالى يلهمنا وإياكم الصواب .

تقرير للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
عن المحاكم الشرعية

هذا التقرير كتبه فى سنة ١٨٩٩ ، وإن كان قد تحدث فيه عن المحاكم الشرعية إلا أنه مس أيضاً قضاة المحاكم الأهلية والمختلطة وقد جاء به : —

قبل أن أقول كلمة فيما عليه الأغلب من هؤلاء القضاة أقول ليست المحاكم الشرعية وحدها هي التى ابتليت بضم الضعفاء وغير الأكفاء فى جوانبها فكثير من القضاة فى المحاكم الأهلية لا يزيدون فى معارفهم عمن كثر الكلام عنهم من قضاة المحاكم الشرعية وما يتحدث به من الأحكام المخالفة للشريعة عن هذه المحاكم يتحدث به مخالفاً للقانون والعقل صادراً من أعظم محكمة أهلية أو مختلطة وقد رأينا ذلك وشاهدناه والحكومة تعرف كثيراً منه والكمال غاية يسار إليها ولكن يحول دون الوصول إليها ضعف الإنسان وعجزه .

وجدت كثيراً من قضاة المحاكم الشرعية خصوصاً
فى المراكز لا تسر معارفهم الشرعية والنظامية ولا يرضى العدل
سيرهم فى أعمالهم ، ولذلك وجدت الحاذق منهم يحول جميع القضايا
إلى محضر صلح تجنباً للحكم ولا يلبث المتصالحان لديه أن يختلفا
لأن الصلح غير حقيقى ، ووجدت فيما يوجد من الأحكام خطأ
كثيراً وفى الأكثر يعولون فى تطبيق اللوائح على الكتبة
ومنزلتهم من العلم ما وصفنا فى الباب السابق والعمل جار على أن
يعين أحد المشايخ وقد كان على بعد تام من العالم وشئونه أيام
إقامته فى الجامع الأزهر أو المدينة ولا يعرف من القضاء إلا
ما قرأه فى كتب الفقه ولم يشهد مجلساً من مجالسه ولم يعرف شيئاً
من نظامه الشرعى المعمول به فى بلده ولا يمكنه تحرير رقيم
حسن الأسلوب مفهوم المضمون فى أدنى شئونه وربما لا يعرف
أرقام الأعداد الحسابية ثم يفوض إليه الحكم وهو على هذه الحالة
فيلتجىء إلى الكاتب الذى يجده فى المحكمة فإن كان ذكياً
أمكنه ان يتعلم فى سنه أو ما نزيد عليها ، وإن كان دون ذلك بقى

تلميذاً للكاتب إلى ما شاء الله ، فمن كانت بدايته أن يكون تلميذاً للكاتب فكيف تكون نهايته، وإنى لا انكر أن بعض القضاة صار من التمرن من أحسن رجال القضاء ولكن لا يصلح أن تكون الأحاذ قواعد يبنى عليها العمل لمن يريد إحكامه .

وقد شاهدت بإحدى الجلسات كاتباً يقطع على القاضى الكلام فى سؤال الشاهد ويسأله بنفسه مرات متكررة ورأيت من سلطة الكاتب فى هذه الحالة ما لا يحتمله إلا هؤلاء القضاة وأمثالهم على أن هذا جميعه مما لا يليق بحرمة القضاء الإسلامى الذى كان يعد مجلسه أوقر المجالس وأعظمها هيبة فى النفوس حيث كان يجلس الخليفة فمن دونه بين يدى قاضيه ولو أن نفوس القضاة استشعرت حقاً واحدا من حقوق دينهم ما نزلوا به إلى هذه الدرجة التى وصل إليها بهم .

أين هذا مما بلغه رجال القضاء الشرعى اليوم ، ولقد فقهوا علوم الشريعة وعمقوا النصوص فى الأصول وثقفوا القوانين الحديثة إلى فطنة وذكاء وعزة وإباء .

طرائف للحديثين من رجال القضاء

منطق بعض الخفراء

خاف من سعادتك ياباشا

كنت وكيلا لنيابة كفر الزيات فأخطرت بجناية قتل بإحدى القرى فانتقلت وظهر من التحقيق ان المجنى عليه كان شيخاً من هؤلاء الذين تشيع عنهم الكرامات فيعتقدهم الناس ويفزعون إليهم كلما تعقد لهم شأن فهم يتألفون الحبيب النافر ويثيبون الزوج الغادر وعلى الجملة يعينون على قضاء اللبانات وبلوغ الغايات ولهم سمت معروف إذا رأيتهم حسبتهم يهيمون فى عوالم أخرى تمتمة متواصلة وهمهمة لا تنقطع إلى سبحة طالت حبائلها وذقن أرخيت سبائلها إلا أن التحقيق أسفر عن أن سبب القتل يرجع إلى بعض ما كان من الشيخ فى خلواته مع زائراته وكنت أجرى التحقيق بالعراء تحت شجرة ، وكان حاضراً بعض رجال الإدارة وعلى رأسهم وكيل المديرية وبينما كنت أسمع أقوال الشهود إذا بى أرى نعش المجنى عليه قد حمله المشيعون إلى المقبرة إلا أنى رأيت عجباً إذ كلما تقدم بالنعش حاملوه قليلا ارتدوا به

إلى الوراء على الرغم مما كانوا يبدونه من جهد ظاهر للسير بالنعش دون ارتداد لم يخرج الشيخ فى هذا الذى حدث منه عن سنن أسلافه من ذوى الكرامات ، إذ من آياتهم بعد الممات أن النعش لا يسير أو على الأقل لا يمكن حامليه من السير قدماً بل إنه يحملهم راغمين على التقدم والارتداد وما أن تظهر هذه الكرامة حتى تنطلق الولولة والزغاريد من المشيعين مما تعذر معه على الاستمرار فى التحقيق عندئذ رأى وكيل المديرية حفاظاً للأمن الذى انتهك بارتكاب القتل وإفلات القاتل أن يحفظه — على الأقل — من شغب جثة القتيل فأمر فنحى حاملوا النعش من الأهالى ووكل إلى شيخ الخفراء والخفراء حمل النعش أيقنت آنئذ ان النعش لن يشغب بعد ذلك ، ولكن راعنى أنه لم يحفل بالخفراء وشيخهم ومضى فيما كان عليه من تقدم وتأخر وعاد المشيعون إلى شغبهم، هنا بدا لى وكيل المديرية مغيظاً محنقاً كيف يعيا هو وهؤلاء الأحراس الأيقاظ الغلاظ عن حفظ الأمن من شغب الجثة فأمر فنحى شيخ الخفراء والخفراء ودعا

بالعسكر فحملوا النعش وتطلعت فإذا النعش يسير بالميت إلى الأمام دون تقهقر وانقطع الطياط إذ سار العسكر به يغذون السير إلى قابره رأى وكيل المديرية بعد ذلك أن يوقع الجزاء على شيخ الخفراء فنادى به وقال له أرأيت كيف سار النعش قدماً لما أن حمله العسكر ولكزة لكزه قوية ، فرد شيخ الخفراء بعد أن أدى التعظيم خاف — أى الميت — من سعادتك يا باشا .

جثة مكان جثة

الحادثة قتل المركز أبو تيج

أبلغ وكيل النيابة بالحادثة فانتقل إلى حيث ارتكبت لاجراء لمعاينة وبعد أن وصف المكان والأبعاد والجثة ومابها من جراح واتجاه دخول المقذوف النارى وخروجه والملابس وما بها من آثار احتراق — إن كان — من أثر دخول المقذوف انتقل إلي مكان ملائم لمباشرة التحقيق ولما لم يكن الطبيب الشرعى قد حضر بعد ليجرى الصفة التشريحية فقد وكل وكيل

النيابة إلى خفير حراسة لجثة وكان أهل المجنى عليه لا يرون فى
تشريح الجثة إجراء عسيا أن يؤدى إلى معرفة الجانى وعلى العكس
يرون فى إعمال الطبيب مبضعه فى الجثة تمزيقاً تمثيلا بها وإزراء
فأقاموا رصداً على الخفير يتربصون منه الغفلات للاستيلاء على
الجثة وما أن تركها الخفير ومضى ليقضى بعض شأنه حتى انقضو
على الجثة وولوا بها مدبرين ، ولما أن فرغ الخفير من قضاء حاجته
وعاد لم يجدها فلم يتردد فى نفسه خاجة من شك فى ان أهل القتيل
هم الذين سرقوا الجثة إلا أنه كان يعلم ما هم عليه من قوة وبأس
فإن هو حاول أن يستردها منهم فإنهم ولا شك سيسطون به
وسيعود خائباً وإن هو اكتفى بإبلاغ النيابة بسرقة الجثة حق عليه
عقاب غليظ لا شك واقع فانسرح يفكر وأخيراً حط به تفكيره
على رأى اطمأنت إليه نفسه وسكن إليه وجدانه وسرعان ما قام
بتنفيذه وكان الناس يقيلون فى الظهيرة وقد خلت الطرقات من
المارة إلا من رجل ساقته المصادفة أن يمر وقتئذ بطريق قريب
من مكان الجثة وما أن رآه الخفير حتى أقعى وسدد فوّهة البندقية

نحوه ثم أطلقها فخر الرجل قتيلا وما عتم الخفير أن نقل جثته ووضعها مكان الجثة المسروقة ، وجثة مكان جثة ولا من رأى ولا من سمع .

حضر بعد ذلك الطبيب الشرعى ومعه العمدة ، وما أن وقع بصر الأخير على الجثة حتى حدد بصره فيها ساهما واجما مما رأى ، إذا استيقن أن الجثة لشخص آخر بالبلد ، كيف قتل ؟ وكيف جيء بجثته ولم لم يجر تبليغ عن قتله ؟ انحطت الشبهات بطبيعة الحال على الخفير ، وأبلغ وكيل النيابة بهذه الجناية الجديدة تتوالد من باطن الجناية الأصيلة التى أقفل فيها محضره ، ثم انتقل لمعاينة الجثة الجديدة ، وكان الطبيب الشرعى حاضراً فأجرى الصفة التشريحيه على التو وإذا لم يكن الطبيب حاضراً ووكلت حراسة الجثة إلى خفير آخر ربما استمرت عملية الاستيلاد والتناسل فى الجنايات .

أنكر الخفير انه هو الذى قتل المجنى عليه الثانى ولكن لما أن رأى نفسه محصوراً بأسئلة المحقق تطامنت أعصابه

فروى الحادثه كما حدثت واعترف أنه هو القاتل حتى ينقل الجثة مكان الجثة المسروقة

روى لى وكيل النيابه المحقق أنه حضر نظر القضية أمام قاضى الإحالة الذى أحال المتهم إلى محكمة الجنايات مقبوضا عليه ولـكنه لا يعلم ما حكمت عليه به لأنه نقل قبل ذلك .

علمت بعد ذلك أن الحكم لم يكن أقل ـ ولا أكثر ـ من الأعدام شنقا .

لقد نام صاحب البيت نفسه

الحادثة سطو والمركز سوهاج

كنت وكيلا لنيابة سوهاج ، وانتقلت للتحقيق ولما أن سألت خفير الدرك ، وجهت إليه هذه الأسئلة :

س — كيف حصلت الحادثة

ج — لا أعرف

س — وكيف لا تعرف وأنت خفير الدرك

ج — غفلت عينى

س — وكيف تنام وعليك الحراسة

ج — لقد نام صاحب البيت نفسه فكيف لا أغفل

منطق هذا الخفير سليم فى ظاهره ، فإذا كان صاحب البيت قد نام وترك حراسته فأحق بالنوم من لم يكن صاحب البيت والمثل المعروف : دعوا دما ضيعه أهله ، ولكن الخفير وهو يتمنطق قد أغفل أهم عنصر حدير بالتقدير ، وهو أنه إنما يتقاضى

أجره من صاحب البيت لقاء سهره على حراسة بيته ، ومع ذلك فلا بأس .

والآن استمع معى إلى خفير يتفلسف ، وكان ذلك أمام أحد وكلاء مديرية الشرقية حيث اعتاد بعض المندوبين السامين — السفراء البريطانيون على ما كانوا يسمون فيما مضى — الصيد فى إكياد وقد كان الخفراء يكلفون بحراسة قضبان السكة الحديد عند مرور هؤلاء السادة ، وقد تخلف أحد الخفراء عن الحضور أمام وكيل النيابة لأداء شهادته لأنه كان ضمن من كلفوا بالحراسة أثناء مرور المندوب السامى وقد سأله وكيل النيابة

س — لماذا تأخرت عن الحضور أمس

ج — كنت يا افندم عند المندوب الثانى

مين اللى جاى ده

أخذا بهذا المنطق الذى أنف ذكره ترى هؤلاء الأحراس الأيقاظ المشرئبين إذا ما ارتكبت جناية وأفلتهم الجانى لا يخفون لمطاردته فى مظانه وإنما يسارعون إلى الوقوف فى الطريق الذى يعلمون أن رجال النيابه والإدارة لاشك سالكوه وهم فى طريقهم إلى مكان ارتكاب الحادثه للتحقيق ثم يتصايحون بأصوات أخاذة نفاذة فى هدأة الليل ، مين اللى جاى ده ؛ وذلك ليثبتوا لهؤلاء السادة الوافدين عليهم من الحكام أنهم أيقاظ غير رقود .

حدث أن أحد وكلاء النيابة كان يضيق بهذا المهرجان البهلوانى الذى ينصب للقياه كلما ذهب إلى بلد لتحقيق حادثة فلم يكن يملك نفسه حين يقترب من مكان الحادثة ويسمع هذا التصايح أن يقف السيارة وينزل منها ثم يمشى ثابت الخطو حتى يصل إلى أول خفير ويعنف له فى القول وربما بالفعل لوقوفه وتصايحه فى غير مقتض وتمكينه الجانى من الفرار وبذلك قضى وكيل النيابة على هذه المهرجانات وما بها من زيف .

تأثير اختلاف البيئة فى العمل القضائى

قيده يا شيخ بهنساوى

يلاقى عضو النيابة حينما يعين لأول مرة فى منصبه خارج مصر عناءاً كبيراً خصوصاً إذا كانت تنشئته في العاصمة فقط ولم يكن قد سبق له أن قضى زمناً ما فى القرى حيث اللهجات والعادات والأوضاع تختلف كثيراً عما تعوده فى حداثته بمصر وعندئذ يتضح ذلك فى عمله ، مثال ذلك عرض على أحد أعضاء النيابة محضر جنحة سرقة ، عنب فى مركز من مراكز الوجه القبلى وتتحصل أقوال المجنى عليه على ما جاء بمحضر البوليس فى أنه حينما كان قائماً ليلا على حراسة أشجار عنب يملكها إذا به يسمع خفيف الشجر فتسمع وإذا به يرى شبحاً يستخفى خلف الأغصان حاملا شيئاً في حجره ظنه المجنى عليه بعض العناقيد التى سرقها الجانى فمضى نحوه ولكن اللص ولى مدبراً ، ولما أن رأى أن اللص سيفلته نادى «قيده يا شيخ بهنساوى» فإذا باللص يقف ولا

يستطيع حراكا فتمكن المجنى عليه مع من حضر من الأهالى من القبض عليه ولما اطلع عضو النيابة على المحضر هاله أن البوليس لم يسمع أقوال الشيخ بهنساوى مع ما يبدو من أهميتها فأشر على المحضر يعاد إلى البوليس لسؤال الشيخ بهنساوى عن معلوماته وكيف تمكن من قيد المتهم وهل حصلت مقاومة من الأخير ليفر بما سرق ؟ وهل نشأ عن ذلك أصابات بالمجنى عليه مع ملاحظة أن لا ترسل المحاضر مستقبلا إلى النيابة دون استيفاء التحقيق .

أشر ضابط البوليس على المحضر بعد أن أطلع على هذا الذى أشر به عضو النيابة ، يعاد المحضر إلى النيابة مع العلم بأن الشيخ بهنساوى ليس إلا اسماً لشيخ يتبرك به فى هذه الناحية ولم يكن هذا الذى جاء على لسان المجنى عليه إلا استدراراً للبركة منه وقد حصلت

لو ان عضو النيابة كان ممن عاشوا فى القرية وألم بأحاديثها لعلم أن هنالك أسطورة سيارة مؤداها أنه لو فجأ إنساناً ثعبان

وخشي أن يسطو به ثمـا عليه إلا أن يقول قيده يارفاعي وعندئذ لا يستطيع الثعبان حراكا ولو قد علم عضو النيابة ذلك ماعزه القياس ولعرف على التو أنه كما للشيخ رفاعي كرامة فى قيد الثعابين فإن الشيخ بهنساوى كرامة فى قيد اللصوص فلكل شيخ كرامة فى ناحية من النواحى أرأيت المنادى ينادى يامن رأى ولداً تائها صفته كذا وكذا ، فمن وجده فله حلاوة ثم يردف ذلك بقوله : ياعدوى ؛ والعدوى على ماقرأت فى كتاب «حياتى» للأستاذ المحقق أحمد أمين شيخ من أولياء الله الصالحين موكل برد التائه إلي أهله ويروى المؤلف بهذه المناسبة حادثة طريفة فقد ألف المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى كتابا أسماه « أين الإنسان » وقد قرأه المرحوم فتحى زغلول فلم يعجبه فأخذ القلم وكتب تحت أين الإنسان « ياعدوى »

بقرة كندوز

بينما كان البوليس يفتش بيتاً لمشتبه فيه وجد مواشى كثيرة مسروقة ومنها على ماجاء بالمحضر « بقره كندوز » ولما أن عرض

المحضر على أحد أعضاء النيابة كتب عليه يعاد إلى البوليس لسؤال الخواجه كندوز صاحب البقرة عن معلوماته وكيف سرقت البقرة منه وهل أبلغ عن السرقة

لو ان صاحبنا وكيل النيابة كان ممن عاشوا فى الريف لعرف أن « كندوز » بعض أوصاف البقر ولكن نشأته بمصر أوحت إليه أن كندوز اسم علم ، ولما لم يكن من المتعارف إطلاقه على مصرى فلا بد أن يكون لأجنبى وعلى هذا الأساس جرى قلمه .

حاجب قاهرى بادفو

كان أحد القضاة من الوجه القبلى واتفق أن عين قاضياً لمحكمة أدفو وكان الحاجب من أهالى القاهرة ونقل أخيراً إلى أدفو ، واسم صاحب الدعوى على ما ورد فى الرول « محمد أحمد » فنادى الحاجب القاهرى فى صوت منسلخ متكسر وعلى طريقة

الحجاب من ترنيم وتنغيم « محمد أحمد » فلم يجب أحد مع أن المنادى كان جالساً بغرفة الجلسة ورآه القاضى الذى يعرفه من قبل لأنه كان من اولئك الذين أغرموا بحب التقاضى فكان كثير الاختلاف إلى المحكمة فطلب القاضى من الحاجب أن ينادى مرة ثانية فنادى مرة أخرى « محمد أحمد » ولا من يجيب عندئذ فطن القاضى الصعيدى إلى السر فراح ينادى على طريقة قومه فى النداء وبعد أن أطبق راحتيه على طرفى فمه ليزيد الصوت المدوي دوياً زعق فنادى « يا وله يا محمد يا أبو أحمد ياوله » فلبى المنادى مسرعاً مهطعاً وتعلم الحاجب ما لم يحط به من قبل علماً وصار بعد ذلك يروض لسانه على هذا الضرب الجديد من النداء كما راح الأهالى يروضون أذانهم على الاستمتاع لندائه فصار يؤثر فيهم ويتأثر بهم حتى تلاقوا على نمط من النداء مفهوم من الجميع .

طيبة لسم

عين أحد القضاة بمحكمة الدلنجات ، ولما لم يسبق له الجلوس بمحكمتها كما لم يسبق له العمل بها بالنيابة لا حظ وهو بالجلسة أن بعض الأعراب يتحاشون النطق باسم الدلنجات وهم يدلون أقوالهم أمامه ، بل يعبرون عنها بلفظة « طيبة لسم » فأمر القاضى أن ينطق لفظ الدلنجات إلا أنه أبى فأمر القاضى قائلا : « يا ولد يا شيخ العرب قل الدلنجات » فأبى وقال للقاضى والشتم ليه فرد عليه القاضى بأنه لم يشتمه فكان جواب الأعرابى وأنت خليت : أى أنك لم تستبق شتما لأنه طلب منه أن ينطق لفظ الدلنجات ولم ينطق الدلنجات

وبعد أن فرغ القاضى من نظر القضايا قام للاستراحة وسأل فعلم أن بعض الأعراب يتذممون من النطق بلفظ الدلنجات لأن لها معنى آخر عندهم لم أر محلا لذكره

ولا يحسبن حاسب أن الملم رجل القضاء بلهجات وعادات

البلد الذي يعين فيه أول مرة يقتضيه زمناً طويلا بل إن ذلك ميسور له فى فترة قصيرة ثم يحيط علماً بكل مافيها فإنى اذكر انى قابلت الزميل الذى تحدثت عنه فيما أنف ذكره وقلت له : كيف حال الشيخ بهنساوى ، فقال : بخير وقد أصبحت ملماً بجميع مشايخ البلاد ولهجات وعادات جهاته المختلفة إذ إضطربت فى جميع المديريات ذاهباً جائياً رائحاً غادياً وفاقا للحركات القضائية فقلت له : بارك الله عليك وزادنا وإياك بسطة فى العلم والعرفان .

وقائع مختلفه

كلب رومى

أرسل المركز إلى النيابة محضراً يتحصل فى أن كلباً عض شخصاً بالطريق وأبلغ البوليس الذى أمكنه معرفة صاحبه وهو مصرى الجنسية وبينما كان المحقق يسأله عن اهماله فى حراسة كلبه حتى عض آخر أجاب بأنه كلب رومى وديع لم يسبق له أن عض إنساناً ولكن المجنى عليه هو الذى عابثه واهتاجه فكان أن عضه وبعد أن فرغ الضابط من سماع شهادة الشهود والتحقيق أشر على المحضر بإرساله إلى النيابة الأهلية لترسله إلى النيابة المختلطة لأن الكلب رومى

غاب عن ضابط البوليس أن المتهم هو صاحب الكلب لا الكلب نفسه

أكلت رصاصة

فى جناية قتل وصل وكيل النيابة إلى حيث يوجد المجني عليه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وكان النزف الذى أحدثه دخول المقذوف بجسم المجنى عليه شديداً وفى مثل هذه الحال يجب ألا يوجه من الأسئلة إلا ما يكون ضرورياً للكشف عن سبب الجريمة وفاعلها إن أمكن إلا أنه عن لأحد وكلاء النيابة أن يوجه للمصاب وهو على هذه الحال السؤال الآتى :

س — ماذا أكلت اليوم

ج — أكلت رصاصة ستميتنى

زوج يشكو زوجه الحامل

ذات صباح كنت أقلب فى كومة الشكاوى الإدارية وإذا بى أجد تلك الشكوى الطريفة وتتحصل فى أن زوجاً يشكو زوجه الحامل لأنها تزمع السفر إلى الأراضي الحجازية لتأدية

فريضة الحج ويخشى إن هي سافرت أن يصاب حملها منه بسوء ويطلب من النيابة أن تمنعها من السفر

رأيت أني إن أشرت بمنع الزوج من السفر فقد يكون فى ذلك تعطيل لها عن أداء شعيرة من شعائر الدين هذا إلى ما فى هذا المنع من حد من حقها فى أن تمشى فى الأرض حيث تشاء وإن أنا رفضت طلب الزوج فقد يصاب الحمل — وهو بعض نتاج الزوجية — بسوء من هزاهز البحر وخضخضة ركوب الجمال هذا إذا كنت مختصاً بإصدار هذا الأمر أو ذاك لذلك عمدت إلى ما يعمد إليه أعضاء النيابة فى أمثال هذه المسائل العائلية وأشرت بإرسال الشكوى إلى المركز للسعي فى التوفيق بين الطرفين وتلفنت المأمور بأن يستعين بمأذون القرية فهو الكفيل بحسم النزاع وتوجيههما الوجهة الشرعية الصحيحة — أو على الأقل — هذا ما يعتقدانه وقد كان إذ ردت إلى النيابة الشكوى مثبتاً بها أن الزوجة قبلت راضية مرضية أن تؤجل تأدية فريضة الحج للعام القابل فأشرت بحفظ الشكوي إدارياً

أجرى على الله

سأل أحد وكلاء النيابة بمركز ديروط الجانى عن سبب قتله المجنى عليه ، فقال : طلبت منى أرملة — أيها القتيل فى هذه الجناية — أن أقتله أخذاً بثارها منه وعرضت أن تؤجرنى على ذلك ثلاثة جنيهات إذ هى كل ما تملك ولما كان أجر إزهاق النفس البشرية فى شريعة الجدعان هو خمسة جنيهات ولم تكن لفقرها لتستطيع دفعه فقد قتلته وأجرى على الله .

دشنا حكمت ! ؟

كنت قاضياً لمحكمة طحطا وفيما كنت انظر إحدى القضايا المدنية وقف أحد المحامين وفى يده مجلة المحاماة وقال : هذا حكم لمحكمة دشنا منشور بالمجلة وما إن هم بتلاوته حتى انطلق صوت يفح كفحيح الحيات وهو يقول : « معتش غير دشنه يحولو جالت » وإذا بالغاضب الصاخب هو خصم موكل المحامى الذى كان يستند إلى حكم محكمة دشنا

صاحبنا الطحطاوى لايقبل أن يقتمد له قاضى محكمة دشنا القواعد القانونية ولا ان يضع له المبادىء التى يمكن أن يسار على هديها إذ قد تعلم — أو لا تعلم — أن دشنا تقع قبلى طحطا

لست أدرى ماذا عساه كان يقول الطحطاوى لو ان محامى خصمه استند إلى حكم صادر من محكمة مصر أرجح الظن عندى أنه كان سيرعد فرقاً اعتقاداً منه انى أنا قاضى محكمة طحطا لا بد آخذ بالمبدأ الذى حكم به قاضى محكمة مصر ، وأنه ولا شك خاسر دعواه

وكانت غرفة الجلسة التى دوى فيها صوت هذا الطحطاوى مجلجلا راعداً فى منزل لأحد أعيان المدينه اضطررنا لاستئجاره على عجل ليكون داراً للمحكمة ، وكانت تشغل من قبل داراً فسيحة أعد بناؤها ليكون محكمة فسيح الأرجاء واسع الجناب به حديقة وغرفة الجلسة كاحدى غرف محاكم الجنايات بمصر ولكن فجأتنا مصلحة المبانى بتلغراف بأن بناءه آيل للسقوط يجب تركه فوراً فبحثنا حتى اهتدينا إلى المنزل المذكور وقد

تحدثت مع سكرتير المحكمة الكلية بأسيوط التى كانت تتبعها طحطا وقتئذ ليخبر رئيس المحكمة الذي كان مشغولا وقتئذ بالجلسه بأن يحضر إلى طحطا لمعاينة المنزل قبل التوقيع على عقد الإيجار ، ولما كان السكرتير أخبرنى ان الرئيس سيحضر مساء اليوم نفسه فقد كلفته بأن يخبر الرئيس بأنى أدعوه للعشاء ، وبعد أن تم كل شيء إذا بتلغراف من الرئيس يصلنى قبيل وصول القطار ونصه حاضرون لمعاينة المنزل نحن لا نتعشي وكم كان دهشي عظيما لدى قراءته

شاع أمر هذا التلغراف فى البلد ، وبعد أن عاين الرئيس المنزل وسافر إلى أسيوط عدت إلى المنزل لأستقبل ضيفى غيرأنى فجئت بإرسال بعض منهم تلغرافات لى هذا نصها : « حاضرون لمعاينة المنزل نحن لا نتعشى » ولما كنت عزبا وقتئذ فقد قضينا تلك الأمسيه ومدار الحديث طرافة تلغراف رئيس المحكمة الذى كان شيخا هما غريب الأطوار فلم أكن صاحب قضية أمامه ولا كان مقدما له شكاوى عنى حتى يتحرز من عشائه عندى .

أما كيف ذاع أمر التلغراف فيرجع إلى مايختص به الأهالى فى المراكز الخارجة عن القاهرة رجال القضاء من رقابة صارمة فما ينطق الأحد منهم من لفظ أو يخطو من خطو إلا ورصد يثبتونه بل يمتد فضول الأهالى إلى كشف الخاص من أمر رجل القضاء فى منزله فإذا وقعوا منه على ما يشين اختزنوه حتى إذا قضى فى أمر على أحدهم بما لا يرتضيه سارع باجترار ما اختزن فى صورة بلاغ من مجهول إلى وزارة العدل أو النائب العام .

ولا يفوتنى أن أشير إلى مكرمة للعمل فى القضاء يهون بها جميع متاعبه ولا تجد لها مثيلا فى أى عمل آخر تلك هي استقلال القاضى فى عمله استقلالا تاماً فما يجسر رئيس المحكمة أن يتحدث مع قاض فى شأن قضية يكون من اختصاصه نظرها كما أنه إذا جلس حتى أحدث قاض مع رئيس المحكمة فى دائرة واحدة كانت التسوية التامة في قيمة الرأى عند الحكم هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عمل رجل القضاء مثبت معلوم مرقوم وهو وحده ناطق بكفاءته إن كان على شيء منها وبدقة بحثه إن كان قد دقق وبحث ولا قيمة لغير ذلك عند الموازنة والتقدير .

وأيضاً مندوب الحكومة

لم يكن صاحبنا الطحطاوى هو وحده الذى أثاره استناد محامى خصمه إلى حكم لمحكمة دشنا لأنها تقع قبلى طحطا بل ان مندوب الحكومة فى إحدى القضايا قد أثاره هو الآخر ما أثار الطحطاوى ، وكان مندوب الحكومة موظفاً بمديرية قنا ندبه قسم قضايا الحكومة — قسم المرافعات — ليمثل الحكومة فى إحدى القضايا المنظورة أمام محكمة قنا وبعث إليه بمذكرة بدفاع الحكومة ليتولى المندوب إيداعها ملف القضية حتى تكون عند نظر المحكمة عند الفصل فيها إذ لم يكن يرسل قسم المرافعات فيما مضى محامين ليحضروا فى جميع القضايا التى للحكومة فى جميع المحاكم بل كان يكتفى فى بعضها بندب أحد موظفى المديرية أو المركز

وقد أخبرنى أحد الزملاء أنه كان قاضياً فى إحدى الدوائر بمحكمة قنا الابتدائيه وعرضت عليهم قضية كانت الحكومة طرفاً فيها فاستند محامى خصمها إلى حكم سابق أصدرته محكمة قنا

عندئذ ثار مندوب الحكومة الذى أنف ذكره وقال : « حكم محكمة قنا إيه أنا عندي هنا فى المذكرة أحكام صادرة من محكمة بورسعيد والإسكندريه »

هذا المندوب يتفق مع صاحبنا الطحطاوى فى أنهما يريان أن قضاة مصر هم وحدهم دون باقى القضـاة الذين يتوافر فيهم العلم والـكفاية وكلما انحدرنا — على رأيهما — جنوبا وجدنا الجهل يبدأ يتغشى القضاة فإذا وصلنا قنا وجدنا فى قضاتها إثارة من علم أما إذا انحدرنا جنوباً إلى أسوان فالجهل يطبق على عقول قضاتها تماماً . إلى هنا ثم يفترقان فإن الطحطاوى يميز عن مندوب الحكومة بسلامة الذوق الفطرى فإنه إذ ثار كان يعظم قاضى محكمته ويكبره عن أن يأخذ برأى قاض دونه وهو قاضى محكمة دشنا — على رأيه — أما مندوب الحكومة فإنه يجبه القضاة الذين يخاطبهم بأن حكمهم لا شئ وأنه دون حكم محكمة بورسعيد والإسكندريه وفى هذا ما فيه من عدم سلامة الذوق

أظنك معى بعد ذلك فى أن سلامة الذوق ليست خصلة تمشى فى ركاب الثقافة تبعاً وتواكبها حتما وأن العلم قد يهذبها والثقافة قد تشذبها إن كانت موجودة بالفطرة أما أن يكون شئ من ذلك خالقاً لها فلا ، فهى لا تكون إلا موهوبة ولا تكون أبداً مكسوبة .

يطلب الانتقال إلى المقبرة

كان أحد القضاة بمحكمة الوايلى قد أسن ورق منه الجلد ودق العظم وتناهبته السقام فكان دائماً متطيراً متشائماً ، وذات صباح طلبت القضية الأولى وكانت نزاعاً على مقبرة وإذا بمحامى المدعى يبادر طالباً انتقال المحكمة المعاينة وما أن سمع القاضى هذا الطلب حتى فزع مبسملا محوقلا ، وقال غير هذا الطلب يا أستاذ ولكن المحامي أصر على طلبه إذ لا يتيسر كشف وجه الحق في القضية إلا أن ينتقل القاضى إلى المقبرة وعندئذ اتجه القاضى إلى محامى الخصم وقال له : ما رأيك فيما يطلبه زميلك ، فرأى المحامى الآخر وكان كيساً نهازاً للفرص السانحه إنى أعارض فيما يطلبه زميلى فلا جدوى من انتقال القاضى إلى المقبرة وإنما أطلب ندب خبير للانتقال إليها ومعاينتها وعندئذ انبسطت أسارير القاضى واطمأنت إلى هذا الطلب نفسه إذ به وحده يبين وجه الحق فى الدعوى وعلى الخبير قد وقع ولذلك قضى على الفور بندب خبير هندسي للانتقال إلى المقبرة ومعاينتها وتقديم تقرير عنها

إتـــله

كان أحد القضاة فكهاً مزحا مسرفاً فى ذلك حتى ليعمل على خلق النكته خلقاً ولا يقتصر على تلقفها إن هي سنحت مما كان سبباً فى تأخيره فى الترقية وقد نبه إلى ذلك إلا أنه كان لا يملك نفسه عن ذلك ردعا وفيما كان ينظر إحدى الدعاوي المدنية وقد احتدم النزاع بين الأخصام إذا بأحد محامى الخصوم يقف ملوحا بورقة فى يده قائلا : لقد وقعت على مستند قاطع فى الدعوى ومؤيد تأييداً تاماً لحجة موكلى فنظر إليه القاضى وقال : « إتله » فبهت المحامى وصاح هذه إهانة إلا أن القاضي تبسم ضاحكا من قوله وقال له مرة ثانيه « إتله » فنضا المحامى الروب عنه وأعلن انسحابه من الجلسة احتجاجاً على تلك الإهانة المتكررة ولكن القاضى وقفه وقال له : أية اهانة فى أن أطلب منك أن تتلو مستنداً تشير إليه فالضمير فى اتله عائد على هذا المستند عندئذ فطن المحامى إلى ما قصد إليه القاضي فراح يتلو المستند نشطاً مرحا .

إعـــــدام

كان أحد رؤساء المحاكم على قريب من الترقية إلى وظيفة مستشار وقد تسلط عليه وسواس ملازم بأن الوزارة ترقبه فى كل هنة تصدر عنه لذلك كان يحرص على أن يفتتح الجلسات فى الميعاد المحدد ويستمر فى نظر القضايا الواردة فى رول الجلسة إلى آخرها دون أن يقوم للاستراحة على الرغم من معارضة القاضيين الجالسين معه وإلحاحهما من الحين إلى الحين فى طلب رفع الجلسة للاستراحة لسبب أو آخر . ولذلك بيتا أمرا ، ولما كانا من اليوم التالى بعد أن فتحت الجلسة ونظرت المحكمة بعض القضايا عرضت قضية جنحة سرقة محكوم فيها من محكمة أول درجه بحبس المتهم ثلاثة أشهر وليس للمتهم سوابق وقد استأنف المتهم ولم تستأنف النيابة وبعد فراغ المحامى من مرافعته همس الرئيس فى أذن القاضى الجالس عن يساره سائلا إياه عن العقوبة التى يرى توقيعها فأجاب إعدام جفل الرئيس وقال هـذا مستحيل هـذا مخالف للقانون ، ثم همس فى أذن القاضى الجالس عن يمينه سائلا إياه عن العقوبة

التى يقترحها فقال : إعدام . فقال مرة ثانية هذا مستحيل فردا عليه إن الحكم يصدر كما يراه أغلب الأعضاء ونحن اثنان نرى توقيع عقوبة الإعدام ، وأنت واحد تعارض والقانون يقضى عليك أن تنطق بحكم الإعدام . فلما أن سىء الرئيس بهما لم ير بدآ من رفع الجلسة للاستراحة غير أن العضوين الجالسين معه اعترضا فأصر الرئيس على وقف الجلسة للاستراحة ولم ينطق بالحكم .

وفى فترة الاستراحة ، وبعد المداولة اتفقوا على الحكم وهو يقضى بتأييد الحكم المستأنف كما اتفقوا على أن يعلن الرئيس الاستراحة كلما دعى لها وطلبها أحد الأعضاء .

صعيدى

كان أحد القضاة واسمه نصيف جرجاوى عين مستشاراً بمصر قاضياً لمحكمة بندر الزقازيق وهو من أبناء الصعيد واسمه كاشف عن ذلك . وذات يوم وهو فى مجلس القضاء إذ نودى على بغى متهمه بأنها حذفت رجلا بحجر فأحدثت به جرحا ولما أن سألها

القاضى فى التهمة أجابت أنها كانت أمام دارها وإذا رجل صعيدى لوح قفا بقف أخذ يناوشها وعبثاً حاولت طرده ، فلما أن أعياها أمره حصبته بحصاة رفيعة . ولما أن نودي على المتهم وحضر وجد حدثاً صغيراً لا يقدر على شىء فصاحت ليس هذا هو المتهم إنما هو صعيدى لوح قفا بقف ولما استيقن القاضى أن الإعلان وجه خطأ للمتهم الحاضر بالجلسة قرر تأجيل القضية لتعلن النيابة المتهم الحقيق معرفا النيابة عن شخصه بما وصفته به المتهمة من أنه «صعيدى لوح قفا بقف» قالها القاضى وأنف العصبية الصعيديه راغم .

كلنا عندنا سكر

كان أحد القضاة يرأس إحدى الدوائر بمحكمة مصر وكان ممن ثقفوا ثقافه فرنسية صرفاً إذ كانت دراسته بالمعاهد الفرنسيه وبالمنزل لا يتحدث هو وعائلته إلا الفرنسية على البدع الذى كان فاشياً من أن التحدث بها كان من أمارات العلية من المصريين ولذا كان إذا شكا ألماً بالمعدة قال : Je souffre de gastrite ولا يعرف مرض السكر إلا باسمه الفرنسى diabet وقد حدث فى إحدى الجلسات التى يرأسها ان طلب أحد القاضيين اللذين

يجلسان معه رفع الجلسه للاستراحه فوافق ثم بعد قليل طلب رفعها مرة ثانية لأنه عنده « سكر » فعارض الرئيس وأصر العضو لأن عنده سكر وهدد بالخروج وحده اضطر الرئيس إلى رفع الجلسة وما أن خلا الأعضاء بعضهم إلى بعض فى غرفة المداولة حتى صاح الرئيس هذه استراحات كثيرة، وكل قليل سكر سكر كلنا عندنا بالمنزل سكر وشاى وغيره لست وحدك يامن شير الذى عنده سكر ولما أن قيل له : أن سكر هنا ترجمة لكلمه diabet أعتذر ازميله القاضى آسفاً .

كانت لابسة سموكنج

كنت قاضياً لمحكمة المحلة الكبرى بعد المرحوم محمد البابلى وكان على ذكاء ساطع لماح يلقط الملحة طائرة ويقولها خطفاً ولا يتغير لماسمع أو قال شىء من معارف وجهه — كان مستشار بمجلس الدولة وتوفى رحمه الله رحمة واسعة — وفيما كان يرأس إحدى جلسات محكمة المحلة الكبرى عرضت عليه قضية جنحة سرقة إوزه ، فسأل المجنى عليها عن أوصافها فأجابت : بأن لها جناحين

سوادا وبن وصدرها أبيض ، فقال القاضى : على التو « كانت تلبس سموكنج يعنى » وأنى اقتصر على إيراد هذه الملحة تاركا الكثير مما سمعته عنه .

جمعه ورا جمعه

كان اسم القاضى «نخله» ـ كان وزيراً ـ والمتهم جمعه ، والتهمة إتلاف أشجار نخل لجاره ، سئل المتهم فى التهمة فأجاب بإنه ينازع جاره ملكية الأرض التى زرع بها النخيل إذ زرعها فى أرضه بغير حق ولذلك اقتلعها نخله ورا نخله ورا نخله ولما أن اطمأن القاضى إلى ثبوت التهمه نطق بالحكم وهو يقضى بحبس المتهم ستة أشهر هنا صاح المتهم هذا ظلم فرد القاضى هون عليك ستمر جمعه ورا جمعه ورا جمعه —

ثلاث سنوات فقط

عرف عن المرحوم محمد مجدى المستشار أنه كان إذا اقتنع بإدانة متهم قسا فى توقيع الحكم بالعقوبة حتى لتكون فى كثير من القضايا

النهاية القصوى التى نص عليها القانون للعقوبة ، ولذلك كان إذا اقترح أحد زميليه من المستشارين الجالسين معه عقوبة دون النهايه القصوى استقلها فإذاقال مثلا زميله خمس سنوات رد «بس خمس سنوات» ولكثرة ماردد هذا التعبيرمع زملائه بلغ منه مبلغ العادة حتى لقى صديقاً له ومعه طفل له فسأله عن سن ابنه فقال : ثلاث سنوات ، فلم يدر حضرة المستشار الكبير ألا ولسانه يردد « بس ثلاث سنوات » طوعا للمادة التى استبدت به .

أمر يده على عمامته

يروى أنه عرف عن المرحوم الشيخ محمد عبده أنه كان إذا اطمأن إلى ثبوت التهمة وأراد توقيع العقوبه أمر يده على عمامته ودفعها إلى الخلف . وقد حدث أنه كان ينظر فى إحدى القضايا ووضع يده على العمامة فصاح المتهم قائلا : « أوع تزحلقها » .

لا جريمة

روى لى أحد كبار رجال القانون بمصر الآن أنه كان مساعداً للنيابه فى سنة ١٨٩٨ ، وكان بنيابة المنيا الـكليه وقد عرض على رئيس النيابه وعلى الأصح نائب نيابة المنيا إحدى الجنايات الواردة من الجزئيات وتتحصل ظروفها فى أن أحد العمد رأى خصما له ماراً بالطريق فأمر أحد الخفراء ممن كانوا يرافقونه أن يطلق عليه عياراً نارياً غير أنه لم يصبه فأمر آخر بأن يطلق هو العيار الناري فأطلقه وأصاب من المجنى عليه مقتلا ، قيد وكيل النيابه المحقق الحادثة ، شروع فى قتل ضد الخفير الأول وقتل ضد الخفير الثاني وقيدها ضد العمدة على اعتبار أنه شريك بالتحريض فى ارتكاب الجنايتين السابقتين ، ولما أن فرغ مساعد النيابه . القاص من عرضها على نائب النيابه سأله الأخير عما يراه فى وصف زميله للحادثة فأخبره بموافقته على رأى زميله فما كان من نائب النيابة إلا أن عيبه وزميله بضحالة التفـكير والبعد عن تفهم

القانون تفهماً صحيحاً وراح يرشده ويعلمه قائلا : إن القانون لا يعاقب إلا على الأفعال المادية التى أدت إلى ارتكاب الجريمة فعلا ومن ثم لا يؤاخذ على ما حدث من الخفير الأول الذى لم يزد عن أن أطلق عياراً ناريا لم يكن له من أثر فعلى فى القتل ، أما العمده فكل ما صدر منه كلام فى كلام وكان فى ميسور الخفير القاتل ألا يستمع إليه ، وعلى ذلك قيد الحادثه ضد الخفير الذى أصاب عياره المجنى عليه ، ولم يقيدها ضدالخفير الآخر أوالعمده .

عرضت القضية على محكمة الجنايات ، وقد وكل إلى وكيل النيابه - مرقص حنا - الذى كان وزيراً — المرافعة فى القضية ولما أن أخذ رئيس المحكمة على النيابه هذا الخطأ الفاضح أجاب المترافع بأن التصرف فى الجنايات من اختصاص نائب رئيس النيابه فقررت المحكمة القبض على العمده والخفيرالآخر وأرسلت خطاباً شديد اللهجه إلى نائب النيابه .

مخالفة لا جناية

قص على القاص نفسه الحادثة الآتية ، وقد حصلت ظروفها في الوقت الذى حصلت فيه الحادثة السابقة : أى فى أواخر القرن الماضى ، فقال : جرى العمل فى النيابة على أنه فى مخالفات السكة الحديد يقبض البوليس على المتهمين ويرسل المتهم مع المحضر فوراً للنيابه فيستجوب عضو النيابه المتهم ويقدمه للقاضى مباشرة فإذا أصدر حكما بالإدانه نفذ على التو والسبب فى اتخاذ هذا الاجراء فى مخالفات السكة الحديد بالذات أن أغلب المتهمين فيها ممن لا يؤويهم منزل ولا يعرف لهم مستقر فإذا اطلق سراحهم عقب ارتكاب الحوادث وطلبوا بعد ذلك لجلسة المحاكمة استحال الاهتداء إليهم وبذلك يفلتون من العقاب ، وقد حدث أن عرض على أحد أعضاء نيابة المنيا التى كان الراوى عضواً بها فى أواخر القرن الماضى محضر يتحصل فى أن المتهم ضبط راكباً القطار ، وقد قدم للكمسارى تذكرة وجد أنها كانت تخوله الركوب فى القطار اليوم السابق فاستجوب عضو النيابه المتهم عن الحادثه

وقيدها جناية تزوير فى أوراق رسميه مع ان الأمر لا يعد وأن يكون مخالفه .

ارجو ملاحظة ان الحادثتين السابقتين حصلتا فى آخر القرن الماضى ، وقد رويتهما لقيمتهما التاريخيه إذ يستحيل أن يحدث الآن مثل هذا الخطأ من أعضاء النيابه .

عوارض

كان أحد القرويين بمركز قليوب يهارش قطته فعضته فى ساقه وأحدثت به جرحاً لم يحفل به أول الأمر إلا أن الجرح خبث بعد أيام وتقيح فذهب إلى مركز البوليس ليبلغ عن سبب الإصابه حتى يجرى البوليس محضراً بما حصل ويحيله على المستشفي وبعد أن سمع معاون الإداره المحقق أقوال المصاب وأتم التحقيق حار فيمن يقيد التهمه ضده أهو صاحب القطة ، ولكنه هو المصاب والمجني عليه فلم ير أمامه إلا أن قيدها ضد القطة وأرسلها إلى نيابة قليوب التى أعادت له المحضر لقيده عوارض .

متشرد يدفع الكفالة

ضبط البوليس أحد المتسكعين فى شوارع بندر دسوق فى حالة تشرد فحرر له محضراً وأرسله للنيابه ، وبعد ان استجوب وكيل النيابه المتهم أمر بالإفراج عنه بكفالة قدرها ثلاثة جنيهات دفعها المتهم وأخلى سبيله ، فلما أن عرض على وكيل النيابه الذى روى لى هذه الحادثة المحضر حفظ الحادثة لعدم الجناية لأنه ما دام المتهم يملك ثلاثة جنيهات دفعها كفالة للافراج عنه فلا يكون متشرداً .

عمدة

عرف لأعضاء النيابه بأحد مراكز الوجه القبلى عمدة بالبساطة حتى ليبلغ ذلك منه حد البلاهة ، وقد كان أحدهم يجرى تحقيقاً ببلده فوقع بصره على صورة معلقة لأعضاء مجلس الشيوخ وكان أخوه عضواً بهذا المجلس وصوره معهم ، فسأل وكيل النيابه العمده أين هو أخوك فى هذه الصورة فرد العمده معذرة يا سعادة البيك

فأنى لا أقرأ ولا أكتب ؛ ولما أن كان وكيل النيابه يجرى المعاينه فى إحدى الجنايات قال له المجنى عليه والشهود ان المتهم قفز من حائط هذه الدار إلى حائط أخرى تبعد عن الأولى مسافه طويلة أثبت وكيل النيابه بمحضره عدم إمكان حصول هذا القفز فعز على العمدة أن يتسم هو ورجاله بالكذب فما كان منه إلا أن قام وقفز من الحائط إلى الحائط الآخر فعاد وكيل النيابه وأثبت بمحضره ماحصل من العمدة وأن الحادثة يمكن أن تحصل على النحو الذى شهدت به الشهود ولكن مالم يثبته بمحضره هو أنه كان وجلا خائفا أن يهوى العمدة إلى الأرض فتكون حادثة أخرى قد يكون عليه نصيب من مسئوليتها

إتكسر حكمك

حدث أن كان هذا العمدة يؤدى شهادة أمام قاضى محكمة مركزه فى قضية مواد مخدرة فسأله القاضى هل كان معك إذن من النيابة بتفتيش المتهم قال لا ، فقضى القاضى ببراءة المتهم ثم

عاد العمده ليشهد أمام نفس القاضى فى قضية مواد مخدرة أخرى فسأله القاضى نفس السؤال وعما اذا كان قد حصل من النيابة على إذن بالتفتيش فرد عليه العمدة . « أظنك عايز تبرأ المتهم كما حصل فى القضية السابقة ياسيدى ربنا أخذ باليد وتـكسر حكمك فى الاستئناف » تغيظ القاضى ولـكن وكيل النيابة أخبره بما عليه الشاهد من بساطة .

خصم ثالث

كان قاضى محكمة المطارين ينظر فى إحدي القضايا وهو مكدود مجهود فضلا عما يعتمل فى نفسه من أسى والتياع لتخطيه فى الترقية مع أنه على قريب من سن التقاعد وكان الخصمان فى القضية التى ينظرها ممن عرفوا باللدد فى الخصام والتفنن فى طرقه وإذا بشخص يتقدم وهو يقول للقاضى أطلب دخولى خصما ثالثافى الدعوى، عندئذ غلبت على القاضىفطرته لمايؤوده من جهد فىحاضره وأسى على ماضيه وابتئاس بمستقبله فأفلته زمام أعصابه فنطق بالقرار وأسبابه على غير وعى منه « رفض وهل أنا قادر على خصمين حتى أدخل معهما ثالث » فاعترض طالب التدخل وعندئذ قال القاضى محتدا ، بره ياسى خصم ثالث ، وكان الحاجب حريصا على أن يردد ألفاظ القاضى كماهى وينفذها كما هى ، فراح يردد ما قاله القاضى بصوت مدو وعلى طريقة الحجاب من تنغيم

وترنيم وتقطيع وترجيع «برة ياسي خصم ثالث» فانطلق صاحبنا إلى الطريق ثم انغمس فى غمار الناس مستخفيا متواريا

حصل هذا فى أواخر القرن الماضى وسأذكر الحادثتين الآتيتين وقد حصلتا أيضا فى تلك الفترة

لحط بك فى مصر

قص على مستشار بمحكمة النقض قديم حملته الأيام حتى خرج من القضاء إلى التقاعد فى الخامسة والستين وأنى لأرجو له المزيد من العافية وطول العمر قال : عينت أول ماعينت قاضيا بأسوان وكان بها قاض هرم لا يعرف لسنة بداية فما لمولده أثر فى سجل يضبط تاريخه وقد ضعف حتى ما كان يجلس بالجلسة ـ فى أسوان ـ إلا والمصطلى بجواره لتترسل منه الحرارة إليه قال الراوى ولما أن زرته قال لى ناصحا ، هذا أول عهدك بالقضاء ، وإن

أردت أن لا يطول مقامك فى أسوان وأن تكون نقلتك إلى مصر فارفع من صوتك بالجلسة وأرسله مصلصلا مجلجلا فيتسامعك الناس فتبادر الوزارة إلى نقلك إلى مصر وحذار من أن تخافت فى حديثك أو تهمس بالصوت الخفيض وافعل كما أفعل على وهن منى ، قال القاص وجاءت الحركة القضائية وإذا القاضى الشيخ ينقل إلى دمنهور فما وسعنى أن أذكرته بنصيحته ثم قلت له : لو انك خفضت من صوتك هونا ما لحط بك فى مصر ، أما وقد أعليته كثيرا فقد طار بك إلى دمنهور ، فوقع قولى من نفس القاضى الشيخ هوى ، وقال ، هو ذاك يا بنى وإنى إن شاء الله لفاعل

المتهم يتشعبط

قص الراوى نفسه الحادثة الآتية وهى تدل على أن لغة الأحكام كانت فى أواخر القرن الماضى في بعض القضايا ركيكة اللفظ عامية الأداء وإليك المثل جاء بحكم من الأحكام الصادرة فى تلك الفترة ما يأتى « من حيث أن الشاهد رأى المتهم يتشعبط على الحائط ومن حيث أن المتهم أعور وكل ذى عاهة جبار نرى تشديد العقوبة عليه » .

أذكرنى ذلك ماجاء فى تقرير المغفور له الشيخ محمد عبده عن بعض القضاة فى المحاكم الأهلية والمختلطة في أواخر القرن الماضى وقد أنف ذكر هذا التقرير .

ما تفهمش

كان المرحوم محمد صالح المستشار لماح الذكاء ساطعه حتى لقد كان يكتب الأسباب فى الجنايات قبل النطق بالحكم بالجلسة

عينها التى ينظر فيها القضايا ، حدث وهو رئيس إحدى المحاكم الابتدائية أن زاره زميل له من أقرانه كان قد أوتى من الغباء مثل ماأوتى المستشار محمد صالح من الذكاء فقال له :

أنت هنا فارغ من العمل فى ندوتك للحديث والسمر وأنا دائب على مذاكرة القضايا وأنت ترقى رئيس محكمة وأنا لا أزال قاضيا فرد عليه ما تفهمش ازاي

قال أهذا عدل أنا أؤدى واجبي ولا آتى نكرا وأظل قاضيا فرد رئيس المحكمة ما تفهمش

ومع ذلك لم يفهم القاضى مايغمزه به رئيس المحكمة صالح على ما كان وقتئذ

معه حق

كان رئيس محكمة النقض أحمد حسن وهو رئيس لمحكمة استئناف أسيوط لايقبل تأجيل القضايا المعروضة عليه ويعمل

جاهدا على الفصل فيها ولما أن عرض الأمر على وزير العدل أرسل له جوابا يثنى فيه عليه فرده على الوزير قائلا، آسف إنى إن قبلت منك توجيه الثناء، فقدخولتك حق توجيه اللوم، وهذاوذاك ليسا من حقك على .

ولماأن قرأ الوزير هذا الخطاب زم ما بين حاجبيه وفتل شاربيه ثم مصمص شفتيه وقال متفكرا « معه حق »

ملحوظه : سبق أن نشرت الصحف أمر هذا الخطاب

حضرة صاحب الفضيلة

حدثنى المستشار نصيف جرجاوى فقال :

كنت قاضياً بمحكمة قنا لما أن اعتدى على الزعيم الأبى سعد زغلول سنة ١٩٢٤ فأرسل له قضاة المحكمة تلغرافات يهنئونه بنجاته ، وقد أرسل قاضى محكمة نجع حمادي الأهلى فيمن أرسل تلغرافاً وكتب تحت إمضائه قاضى محكمة نجع حمادى دون أن يبين ما إذا كان هو القاضى الأهلى أو القاضى الشرعى وبعد أيام جاءه كتاب من الزعيم بالشكر كباقى زملائه غير أنه وجد مكتوباً على الغلاف العنوان الآتى على اعتبار أنه القاضى الشرعى :

حضرة صاحب الفضيلة حسن الهضيبى قاضى محكمة نجع حمادى .

وفى سنة ١٩٥١ اختير المستشار الهضيبى مرشداً عاماً للاخوان المسلمين وصار يلقب بصاحب الفضيلة ، أما لماذا كتب له على

غلاف خطاب الزعيم صاحب الفضيلة فأظننى إذ أحدس لا أبعد
فلعله أن يكون قد ضمن تلغرافه آية كريمة مما يقال فى مثل هـذا
المقام فرجح سكرتير الزعيم لذلك انه لابد أن يكون القاضى
الشرعى لمحكمة نجع حمادى .

ومهما يكن من سبب فـكأن ما كتب على غلاف كتاب
الزعـيم سعد فى سـنة ١٩٢٤ كان إرهاصاً بالذى سيكون
فى سنة ١٩٥١.

بين النيـابة والإدارة

يقع أحياناً بين رجال النيابة والإدارة نزاع . يجلى أسبابه المثل الآتية :

حدث إلى انتقلت ليلاً فى حادثة حريق جرن كبير لتفتيش يضم آلاف الفدادين وما أنسى ولا أنسى منظر ألسنة النار وهى تزغرد وتبعث اللهيب فى الجو سامقا شاهقاً وقد ضوأت الأرض والسماء وأحالت بهمة الليل نهاراً مبصراً .

اتهم المفتش بعض الأجراء بوضع النار عمداً فى الجرن لأنه طردهم ، ولـكن للمأمور رأى آخر ، وهو ان النار لم توضع عمداً فى الجرن بل ان سبب الحريق يرجع إلى إهمال من بعض العمال الذين ينقلون البر إذ يلقون أعقاب لفائف الدخان ولما لم يطفئوها وبذلك تشتعل النار فى عيدان القمح ، فالحـادثة على ما يصورها المأمور عن إهمال ومن ثم تكون جنحه لا جناية كما يصورها المفتش ، تعودت إلا أدخل فى جدال مع رجال الادارة فى مثل هذه

الأمور لسبب بسيط وهو أن مرجع التصرف فى الجنايات لرئيس النيابة فهو وحده الذى يصف الحادثة الوصف النهائى وقد أضمن مذكرتى المرسلة إليه رأياً فى وصف الحادث ويرى هو لسبب أو آخر أن يأخذ بوجهة نظر رجال الإدارة فلا جدوى ولا محل إذاً للجدال .

يتضح مما سبق أن المأمور يريد أن يتنزل بوصف الحادثة من جناية وضع النار عمداً إلى جنحة حريق بإهمال قد يكون ذلك منه ، لأن هذا هو التصوير الصحيح للحادثة على ما يعتقد وقد يكون لأنه يرى كبعض رجال الإدارة — وهم قلة — لأن الجنايات هى أهم مايوضع فى الميزان عند تقدير كفايته ، فإذا ثقلت كفته وحطت من كثرة ماوضع فيها من الجنايات نقصت درجة كفايته تبعاً وإنشالت كفة الميزان لقلة مايوضع بها من جنايات زاد تقديره .

إحراق كل أجران البلد

حدث أن أصدر أحد المأمير أمرا بأن توضع جميع البيادر التي بالقرى على شواطئ الترع التي تجوزها وقد قصد من ذلك أن تكون على قريب من المياه حتى إذ اشتعلت النار بإحداه أمكن إطفاؤها فورا ، ولكن الذي حدث أن النار وضعت في إحداها فالتهمت الباقي لأنها سريعة الانتقال من جرن إلى جرن إذ صادفت ريحا عاتية ، ولذلك قيدت النيابة إحراق جميع بيادر البلدة جناية واحدة لأنها حدثت في وقت واحد بسبب واحد ولو قد تركت مبعثرة في البلد لعد كل حريق في كل منها جناية مستقلة .

لم يقصد المأمور إلى هذه النتيجة من تقليل عدد الجنايات ولكن أظنها جاءت عفوا إذ نيته حسنة ما في ذلك شك في وضع جميع البيادر التي بكل بلدة على قريب من الماء .

أبلغ أحد وكلاء النيابة بثلاث حوادث حريق وكانت وجهة نظر رجال الإدارة أنها من أعقاب سجاير على ما مر بك .

ولما أن فرغ من تحقيقها وأوى إلى منزله صلصل التلفون وكان النوم يرنق فى عينيه فاستمع وإذا المأمور يبلغه بحصول حريق ومن سيجاره ، لم يملك نفسه وكيل النيابة من أن يقول للمأمور لو كانت سجاير ما توسيان كلها بهذا المركز لنفدت قبل أن تنفد حرائقه .

كان يقال قبلا فى بعض النواحى ان النار اشتعلت نتيجة أكل الفأرة لأعواد الكبريت فلا جناية فى الحادثه .

سبب آخر من أسباب الخلف المعاينات فى جرائم الاتلاف إذ قد يؤخذ منها أن عدد الجناة من القلة بحيث تعتبر الحادثة ليلا جنحة أو من الكثرة بحيث تعتبر الحادثة ليلا جناية ويقوم الخلف أحياناً حتى فى جرائم القتل فإذا قتل رجل فى حقل وأبى أهله اتهام أحد لما يضمرونه من طلب الثأر أو لأنهم لا يريدون تهاما لا جدوى منه لضعف الدليل أمكن أن يقال : أما وأهل القتيل لاعداوة بينهم وبين أحد فقد تكون الحادثة حصلت عن همال وأن يكون القتيل قد أصيب بعيار طائش من أحد الزراع لذين يحرسون زراعتهم ويطلقون الأعيرة إرهاباً .

حدث أنى ندبت وكيلا لنيابة طهطا لمرض وكيل نيابتها وكانت تحية القدوم إشارة تبليغ عن جثة عثر عليها فى النيل والذى رآها أحد الأعيان كان قد رشحه المأمور شيخا لإحدى الحصص ببلده والذى تلقى التبليغ منه ضابط عين حديثا ، قد يكون ما نقل إلى غير صحيح من أن المأمور ندم على ترشيحه المبلغ شيخا لإحدى البلاد كما أنه أنب ضابط البوليس لتبليغه عن الحادث لأنه كان يؤثر أن يدعّ الجثة حتى تسير مع التيار إلى مركز آخر حتى لا تعتبر جناية فى مركزه .

ومهما يكن من أمر فإن بعض رجال الإدارة يعملون أحيانا على ذلك

مثل آخر من أمثلة الخلف بين رجال الإدارة فيما بينهم ، تقع الحوادث أحيانا على حدود فاصلة بين مديريتين يختلف أولا مأمورا المركزين المتجاورين والتابع كل منهما لمديرية مجاورة للأخرى عند تحديد مكان الجريمة فكل يود أن يكون بعيدا عنه حتى تعتبر الجناية قد ارتكبت فى المركز الآخر فلا تحسب على المركز الذى يرأسه وبالتالى على المديرية التى يتبعها المركز فى سبيل تحديد تبعية مكان الجريمة تحصل مفاوضات وتتخذ إجراءات عديدة وقد تتولاها وزارة الداخلية

حوادث اعتداء على القضاة

على رئيس وزراء سابق (محمد سعيد)

كان الدكتور حسن نشأت أستاذاً بكلية الحقوق أو على الأصح مدرسة الحقوق ، وفيما كان يلقى علينا دروساً فى قانون تحقيق الجنايات أخبرنا بالواقعة الآتية :

كان يرأس محكمة جنايات الإسكندرية المستشار محمد سعيد الذى كان بعد ذلك رئيساً للوزراء . وبعد أن نطق بالحكم فى إحدى القضايا ، وكان الحكم يقضى بمعاقبة المتهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، خلع هذا المتهم بعد سماعه الحكم بلغته وصوبها نحو وجه رئيس المحكمة فأصابه . ومنذ ذلك التاريخ يفتش المتهمون تفتيشاً دقيقاً قبل إدخالهم قاعة الجلسة ولا يسمح لأي منهم أن ينتعل شيئاً بل يدخلون جميعاً حفاة الأقدام في قاعة محكمة جنايات الاسكندرية .

مما أفــرغ

حدث أخيراً أمام إحدى دوائر محكمة الجنايات بمصر أن ظن أحد المتهمين ـ إن خطأ أو صوابا ـ أن اسئلة رئيس الدائرة تنم عن اتجاه المحكمة إلى إدانته فاستأذن المتهم اليه ليذهب لقضاء بعض شأنه فأذن له الرئيس وقد صحبه حرسى ، فلما أن خلا إلى نفسه وقضى حاجته احتفظ فى ورقة كانت معه بشىء مما أفرغ ثم دسها بما فيها بجيبه وبعد أن فرغت المحكمة من نظر القضية ونطق الرئيس بالحكم وكان يقضى بإدانته سرعان ما أخرج المتهم من جيبه ما اختزنه والقى به فى وجه الرئيس وكان جزاؤه على هذا الاعتداء الذى تقــذره كل من رآه أو سمـع به الحكم بالحبس ثلاث سنوات .

ولما كان الإجرام كبعض الأدواء يعدى ، فقد حدث بعد هذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها — فى دمنهور إذ كان المتهم ينقم من قاضى محكمة دمنهور سابقة الحكم عليه فى تهمة اتجار بالمواد المخدرة حكما غليظاً ، فلما ان جىء به أمام نفس القاضى فى تهمة

مماثلة كان أول مابدأ به أن حيي القاضى التحية التى سبق حصولها في محكمة جنايات مصر وكان قد أعد بطاقة التحية وخبأها فى جيبه على ما فعل المتهم فى مصر فلم يملك القاضى وقد لوثت ملابسه أن يقف الجلسة ليغير ثيابه وعف عن أن يحاكم المتهم أمامه وترك أمره إلى قاض آخر ليحكم فى هذا الاعتداء .

هـــذا ظلم

حدث غير مرة أنى بعد النطق بالحكم كان يصيح المتهم هذا ظلم ، ولما كنت قد حفظت فى بواكير عهدى بالقضاء الحديث الشريف «إنما أنا بشر وإنما تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون أبلغ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أوليتركها» ، وعلى ذلك كنت لا أستطيع أن أبرئ نفسى من الخطأ وإن كنت أستطيع أن أبرئها من كل غاية فكنت أرد على تهجم

المتهم بأن أدعو الحاجب ليصحبه إلى سكرتير النيابة حتى يقرر باستئناف الحكم .

من صحف السوابق

كنا نلاحظ من صحف سوابق بعض المتهمين المقدمين إلى محاكم الجنايات أنهم أغرموا بأن يقولوا بعد سماع الحكم بالإدانة عبارات قد يكون فيها اعتداء على المحكمة أو على آخرين ليس ما يربط بين الحكم بالإدانة ، وهذه الجهات إلا غريزة الميل إلى الشغب فى هؤلاء الأشرار فكنا بعد المداولة فى تقدير العقوبة فى حالة الإدانة والاتفاق عليها نتداول بعد ذلك فى الطريقة التى ينطق بها رئيس المحكمة الحكم حتى لا يهيئ لهذا المتهم الشغب الفرصة لارتكاب جرائمه اللفظية ، فمن ذلك أن ينطق الرئيس اسم المتهم والحكم بصوت نحيل ضئيل لا يكاد يبين ، وكنا أحيانًا نتفق على أن ينطق الرئيس الحكم مغفلا اسم المتهم اكتفاء بذكر رقم القضية فى الرول فيقول مثلا القضية الأولى الحكم بمعاقبة المتهم الأول : إن كان فيها أكثر من متهم ــ بالأشغال الشاقه المؤبدة

وهكذا ولما كان المتهمون قد تعودوا أن يسمعوا أسماءهم عند النطق بالحكم مقرونة بالعقوبة الموقعة عليهم ، وقلما يلقون بالا إلى رقم القضية فى الرول ، فإن أحداً منهم ، وقد نطق بالحكم على النحو الذى أنف ذكره ، لم يكن يعرف ما حكم به عليه ، ولذلك كان يقف كل منهم مدهوشاً مشدوهاً يتساءل عن أمام وعن يمين وعن يسار عن الحكم ، وعندئذ نكون قد دلفنا إلى غرفة الاستراحة ولمن شاء منهم أن يقول ما يشاء كيفما شاء بعد علمه بالحكم من كاتب الجلسة وقد خلت المحكمة من الحاضرين ونحن لا نسمع ما يقولون .

عامـــل عربى

كنت مفتشاً بالنيابات وندبت رئيساً لإحدى نيابات الوجه القبلى ، وحدث ان اتهم أحد أثرياء العرب فى جناية قتل منافس لقريب له فى الانتخاب فلما جىء به أمامى ووكيل النيابة اتخذنا معه من الاجراءات ما يتخذه كل محقق مع أى متهم آخر فأمرنا أن تخلع بعض ملابسه فقد يكون بجسمه آثار تعين الاتهام

يخلعها متمهلا متثاقلا ، لأن خلعه الملابس على هذا النحو شيء يكرهه العرب ويمارونه إلى آماد بعيدة ، ولما لم يعجب شيخ العرب ، ما كان مني معه قابل حضرة وكيل نيابة المركز — وقال له : صاحبنا عامل عربي دا غجري ، أخبرني زميلي بما قاله المتهم عني ، فجعلت أذناً من طين وأذناً من عجين .

النوم بالنهار والتلصص بالليل

وكثيراً ما كنت أسمع وأنا وكيل نيابة من بعض المآمير ونحن في طريقنا إلى تحقيق بعض حوادث الجنايات اللعن يصب على العرب لأنهم هم الذين يعيثون في الأرض بالفساد ويسفكون الدماء ويؤيمون النساء وأنهم قطاع طرق منقطعون بها وأن عملهم النوم بالنهار والتلصص بالليل الخ فكنت أبدي تمام الموافقة

جرائم الاعتداء على العرض

التحقيق

جرائم الاعتداء على العرض متعددة ، ولـكن كثيراً ما تنبهم أركانها وتتماسح بعضها على بعض عند التطبيق العملى هل الفعل الذى ارتـكب يعتبر شروعا فى اغتصاب أم هتك عرض؟ وإن كان اغتصاباً هل تمت الجريمة أم هى شروع فى ارتكابها ، لذلك أرى لأعضاء النيابة كل العذر إن هم استرسلوا فى التحقيق استظهاراً للفعل الذى حدث من المتهم وتحديده فى دقة وإحكام حتى لا يكون بترالوقائع والقصور عن توفيتها حقها من التوضيح سبباً فى القصور عن تطبيق القانون على الواقعة تطبيقاً صحيحاً ، ولكن تقوم هنا عقبة عملية تحد من حرية المحقق في توجيه ما يشاء من الأسئلة ، فلقد اعتدى على عرض المجنى عليها من المتهم أو هكذا يبدأ الاتهام فيجب ألا يخدش حياؤها بكثرة الأسئلة خصوصاً إذا لم يكن فيها فائدة يعتد بها فى كشف الحقيقة وخصوصاً إذا

كانت عباراتها مكشوفة غير ملفوفة إذ يجب أن توجه الأسئلة بقدر وفى حذر وان تكون مغطاة وإن كانت واضحة ولقد وجهت ملاحظات كثيرة لبعض المحققين بأن اسئلة بعينها ما كان يليق توجيهها ، ولا أرى الأسراف فى إبداء الملاحظات إذ يستشعر معها المحقق ضغطاً من شأنه أن يشل ملكة التحقيق عنده خصوصاً وتوجيه الأسئلة مسألة اعتبارية فقد يستهدف المحقق من سؤاله غاية قد تغيب عن غيره .

بلاغ من مجهول

أذكر أنى عدت من تحقيق حادثة قتل فى ناحية من إحدى النواحى ، ولم يكشف التحقيق عن معرفة الجانى ، وبعد يومين جاءنى بلاغ غفل من الإمضاء بأنه لما كان المجنى عليه أجيراً عند فلان من الأعيان فقد اتصل بابنته اتصالا غير شريف فقتله وما عليك إلا أن تحيل الفتاة واسمها كذا على الطبيب الشرعى ليجرى الكشف عليها حتى تتبين صدق ما نقول :

أشرت على البلاغ سري وقد كلفنا ضابط المباحث بالتحرى

عما جاء بهذا البلاغ ، وبعد أيام كتب ضابط المباحث بأنه يرجح أن البلاغ من قريب لها رفض أبوها زواجها منه .

على أنه حتى لو ثبت صدق مايقوله المبلغ من الكشف الطبي فالنتيجة غير مجدية فى الاتهام فضلا عن التجريس الذى لا تؤمن عواقبه ، ولكن آسف إذ انزلق البعض فى اتخاذ هذا الاجراء .

براءة لضعف الدليل لا المتهم

حدث أن اتهم رجل كبير السن في جريمة هتك عرض أنثى بغير رضاها وكانت سنها دون الثمانية عشر عاماً ، ولما أن نظر قاضي محكمة فاقوس إلى المتهم جزم بأن مثله لايستطيع أن يقعد من مثلها مقعد الرجال فكان حكمه بالآتى :

من حيث أنه بمجرد النظرة الأولى إلى المتهم نقطع بأنه يستحيل عليه أن يرتكب هذه الجريمة ، ومن ثم يتعين الحكم بالبراءة .

استأنفت النيابة ومحكمة الزقازيق قضت بتأييد الحكم

بالبراءة لأسباب أخرى لا تتعلق بضعف المتهم نفسه ولـكن بضعف الدليل قبله ، على أنه مهما يكن من أمر فإنه يجب على المحقق أو القاضى أن يترك الفصل فى أمر أمثال هذه الإمكانيات إلي الطبيب الشرعى كلما اقتضت الظروف ذلك فلله فى خلقه شئون

الاعفاء لسؤال لم يحكم وضعه

روى لى أحد أعضاء مجلس النواب وقد كان مأموراً بإحدى مراكز الوجه القبلى أنه ذهب لزيارة القاضى الشرعى فوجده ينظر إحدى القضايا فى جلسة سرية بغرفة المداولة ، وقد أذن له القاضى بالدخول وكانت الدعوى مقامة من الزوجة على الزوج تطلب الطلاق ، وقال الراوى يصف الزوجة بأنها كانت على جمال لا يرتد دونه الطرف ويصف الزوج بأنه كان شاباً يتوهج وجهه صحة وفتاء قوى البنيان وثيق الأركان ؛ فنظر القاضى إلى الزوج وقال له :

أنها تقول : إنك لست من الرجال فى شيء ،

فأجاب الزوج وهو يهدر كالفحل :

كذابة كذابة ، إلا أن القاضى سأله مازحا أو سارحا لست

أدرى : أوقادر أنت حقاً ياولد ؟ ظن الزوج من السؤال أن القاضى يطالبه الدليل فهم بتقديمه وفى سبيل منعه ومدافعته تهاوى طربوش المأمور إلى الأرض وتدحرج وانفرطت لفائف الشال وفى الهواء تطايرت ، ولا أرى التحدث عما حصل ولا عن الحكم فى القضية حتى لا يستدل به على شىء مما كان ولكن سأتحدث عن الجزاء الذى وقع على القاضى لتوجيهه السؤال الأخير إلى الزوج.

قال الراوى : وذات صباح كنت جالساً بغرفتى بالمركز وإذا بشيخ له سمت وعليه وقار قد دخل الغرفة وسلم ثم جلس وهمس فى أذنى بعد أن عرفنى بشخصه وأنه مفتش قضائى بالمحاكم الشرعية وسألنى أن أقص عليه ما حدث فى الجلسة التى حضرها فلم أر بدآ من إخباره بما حدث كما حدث لم أخرم منه شيئاً.

وبعد ذلك قرأنا فى الجرائد خبر نقل القاضى إلى محكمة أخرى وبعد ذلك بشهرين قرأنا فى الجرائد خبر إحالته على التقاعد.

كان جزاء القاضى إذ سأل سؤالا لم يحكم وضعه الإعفاء من منصبه ، ولم لا؟ أوليس الحديث الشريف : «حسن السؤال نصف العلم» .

المراجع

الأغانى لأبى فرج الأصفهانى
العقد الفريد لابن عبد ربه
العقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم محمد بن أبى طلحة
وفيات الأعيان لابن خلكان
عيون الأخبار لابن قتيبة
تاريخ قضاة مصر فى الإسلام لأبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المعروف بالكندى
شذرات الذهب فى أخبارمن ذهب للمؤرخ الفقيه الأديب أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى
تاريخ القضاء فى الإسلام للقاضي الشيخ محمود محمد عرنوس
تاريخ التشريع الإسلامى للأستاذ الشيخ محمد الخضرى
أبو حنيفة للاستاذ محمد أبى زهره
محاضرة ألقاها الأستاذ عارف الكندى أستاذ علم الاجتماع فى مكتب الحقوق بدمشق عن القضاء فى الإسلام
قصص العرب للأساتذة محمد أحمدجاد المولى ومحمد ابوالفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى
عصر المأمون للدكتور أحمد فريد رفاعي

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٧٤	أموال اليتامى ببيت المال
٧٤	القاضى بحاصل ما تم
٧٥	أول من نقل دواوين الحكومة
٧٥	إنا لسنا من أهل الشهادات
٧٩	إعتقال القاضى بكار الثقفى
٧٩	أراد أحمد بن طولون أن يستحله
٧٠	وكان يحاسب نفسه بعد الجلسة
٨٠	رد بكار شهادة رجل زاهد
٨١	من نوادر بكار
٨٢	قاض يثنى على نفسه
٨٣	الطعن فى الأحكام للخليفة
٨٦	يحيى بن أكثم
٨٧	من نوادره
٨٨	دخوله على المأمون مع إسحاق الموصلى
٨٩	سبب عزله
٩٠	قم فانصرف ، واتق الله واصلح بنتك !
٩٣	رئيس محكمة للمناوئين لمذهب المعتزلة
٩٤	كيف كان ، وكيف انتهى !
٩٥	ما كان يقوله عن أهل زمانه
٩٦	أحمد بن خلكان
٩٧	مثل لمن يذكر عنده أحداً بغيبة
٩٨	ما شنع به عليه

الصفحة	الموضوع

الصفحة الموضوع

تصويب أخطاء

خطأ	صواب	ص	ط
عمراً	عمر	١٣	١٣
نجلبة	تجلية	٢٠	١٤
الإدراك	لإدراك	٢١	٢
قصاة	فضاء	٢٥	١٢
كلمة ناقصة بعد لمن رضيت وهى أرضيت		٤٠	٣
روج	زوّج	٥٧	١٤
بذرات	بشذرات	٦٣	٧
أيام	لعلها تصحيف آنام	٦٨	٨
خطئه	خطية	٦٨	١٣
مخبر	مخـبر	٦٨	١٤
علتا	علته	٧٩	٣
البيتين الآتيين	البيتان الآتيان	٨٧	٥-٦
اقد آنست	لقد أنست	٩٥	٣
وفعت	وقعت	٩٩	٤
الشيخ	للشيخ	١٢٣	٤
الاستمتاع	الاستماع	١٢٥	١١
إنارة	أثارة	١٣٦	٧